لغة الجسد في القرآن الكريم

العين والوجه واليد نموذجا

دراسة بلاغية

الدكتور
كمال عبد العزيز إبراهيم

الدار الثقافية للنشر

لغة الجسد في القرآن الكريم

العين والوجه واليد نموذجا

دراسة بلاغية

الدكتور
كمال عبد العزيز إبراهيم

الدار الثقافية للنشر

إبراهيم، كمال عبد العزيز.
لغة الجسد في القرآن الكريم - العين والوجه واليد (دراسة بلاغية).
كمال عبد العزيز إبراهيم - ط١ - القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠١٠.
١١٢ ص، ٢٤ سم
تدمك ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٣٣٩ - ٢٧٦ - ٨
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٢٤٧١/ ٢٠٠٩
١ - القرآن - بلاغة ٢- العين في القرآن. ٣- لغة الجسد
أ. لغة الجسد في القرآن الكريم- العين والوجه واليد (دراسة بلاغية).
٢٢٥

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ/٢٠١٠م

صندوق بريد ١٣٤ بانوراما ١١٨١١
تليفاكس ٢٤٠٢٠٥١٥ - ٢٤١٧٢٧٦٩ - ٢٢٧٥٩٥٠٢
Email: info@dar-althakafia.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدلله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، سبحانه جعل القرآن لنا إماما ونورا وهدى ورحمة، فاللهم علمنا منه ما جهلنا وذكرنا منه ما نسينا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار. وبعد

فهذا الكتاب الذي بين يديك نفحة مباركة من فيض القرآن الكريم ويتناول لغة الجسد، إذ إنه مما يلفت النظر أن التعبير القرآني عن بعض المواقف جاء باستخدام لغة الإشارة الجسمية في مشهد حركي ينقل إلينا الصورة مجسمة كأننا نراها رأي العين، كي تؤدي تلك الصورة البلاغية دورها الأمثل في التأثير الوجداني للمتلقي في الوقت الذي تؤدي فيه دورها الجمالي في أسلوب ممتع آخاذ.

والكتاب يتخذ من حركة اليد ولغة العين والتعبير بالوجه نموذجا للتعبير القرآني بلغة الإشارة الجسدية، فإننا في حياتنا اليومية نعبر بالإشارة اليدوية عن معاني كثيرة فنبسط اليدين للترحيب بالقادم ونلوح بهما لتوديع المسافر ونضرب كفا بكف للدلالة على التعجب.

كما إن الإشارة بالعين تعتبر وسيلة هامة من وسائل التواصل بين الناس ومن العينين تعرف حالة الإنسان من سرور وحزن ورضا وسخط وتقوم لغة العيون مقام لغة الكلام في أحوال كثيرة وبمثل ذلك يعتبر وجه الإنسان مرآة لغوية صادقة تنعكس عليها أحوال النفس البشرية.

والقرآن الكريم يتخذ من تلك اللغة الثرية وسيلة جذابة للتعبير عن تلك المواقف، فقوم نوح عليه السلام يجعلون أصابعهم في آذانهم إعراضا عن دعوته، والظالم يعض على يديه ندما على ما فعل، والمنافقون عند القتال تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من

الموت خوفا وهلعا والمؤمنون تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق. والكفار إذا مروا بالمؤمنين يتغامزون سخرية واستهزاء. ويزلقون الرسول بأبصارهم حين يسمعون الذكر الحكيم، ويوم القيامة تبيض وجوه وتسود وجوه، وترى وجوه المؤمنين (**ناضرة، مسفرة، ضاحكة، مستبشرة، ناعمة، عاملة ناصبة**) ويعتمد هذا البحث في بيان بلاغة لغة الجسد على السياق والنظم لبيان الظلال والإيحاءات التي يهدف التعبير القرآني إلى إظهارها وتأثيرها في المتلقي.

ويأمل الباحث أن يصل ببحثه هذا إلى عقل القارئ وقلبه حتى يزداد يقينا بأن القرآن الكريم بأسلوبه المعجز إنما هو قبس من نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

كمال عبد العزيز إبراهيم

بندر سري بَجَاوَان – بروناي دار السلام

في ٢٠ من ذي الحجة ١٤٣٠ هـ.

الموافق ٨ ديسمبر ٢٠٠٩م.

بسم الله الرحمن الرحيم

لغة العين في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

تقديم

تطلق العين في الأغلب على الباصرة المعروفة وإن كانت مجازاً تطلق ويراد بها أشياء كثيرة كالذهب والدينار والجاسوس وكبير القوم . الخ والذي يعنينا هنا هو الجارحة المعروفة، وقد وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة تبين حالاتها وحركاتها وما يعتريها من أوضاع مختلفة كالزوغان والدوران والشخوص والدموع والخشوع الخ.

والقرآن الكريم يعبر عنها أحيانا بالعين قال تعالى (. تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ) [المائدة] وبالنظر بقوله تعالى (. نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ) [التوبة] والنظر في القاموس المحيط هو التأمل بالعين، والفرق بينه وبين الرؤية : أن الرؤية: إدراك المرئي والنظر: الإقبال بالبصر نحو المرئي، ولذلك قد ينظر ولا يراه[1]

ويعبر القرآن عن العين أحيانا بالبصر ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم] والبصر هو: حس العين والجمع أبصار.

ويعبر عنها بالطّرف (ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) [النمل] و(يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ .) [الشورى]

ويعبر عنها بالرؤية (.هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ) [التوبة]

والإشارة بالعين إحدى وسائل الاتصال المعروفة بين البشر، وهي في ثباتها أو تقلبها توحي بكثير من المعاني، بها يرى الإنسان ما حوله، وبها تعرف حالته من سرور وحزن، وقلق واطمئنان ، وغضب ورضا، ومهما حاول الإنسان أن يخفى ما بداخله، فإن عينيه تنبئان عنه، ولذا قيل (رب لحظ أنم من لفظ) و(الصب تفضحه عيونه[2])

---

(١) انظر : فروق اللغات : ١٣٤

(٢) للرئيس الأمريكي نيكسون عبارة مشهورة قالها حينما زار مصر في السبعينيات من القرن الماضي بعد حرب رمضان وقد احتشد لاستقباله في مصر جمع غفير فقال : (تستطيع أن تحشد الألوف لاستقبال شخص ما، ولكنك لن تستطيع أن ترسم البسمة على شفاههم ولا أن تطبع وميض السعادة في عيونهم).

وتنوب لغة العين عن لغة الكلام في حالات الخجل أو الخوف من الرقباء.

فهذا عمر بن أبي ربيعه يقول:

أشارتْ بطرف العين خيفةَ أهلها — إشارةَ محزون ولم تتكلم

فأيقنتُ أن الطرفَ قد قال مرحبا — وأهلا وسهلا بالحبيب المتّيم[1]

وأحمد شوقي يقول:

وتعطلتْ لغةُ الكلام وخاطبتْ — عينيّ في لغة الهوى عيناك[2]

إن لغـــة العـــيون أقوى من أية لغة ، لأن المتكلم بالألفاظ يمكن أن ينمق ألفاظه أو يـــزورها، ويمكـــن أن يدّعـــى الغضب فيرفع صوته بعبارات نابية أو يتظاهر بالسرور فـــيمدح ويثنى، ولكن العيون لا تكذب ويمكن الاستدلال بها على ما في الضمير. وقد عقد د. كريم حسام الدين في كتابه الإشارات الجسمية[3] فصلا عن تلك الإشارات في المصادر العربية أفاض فيه الحديث عن حركات الجوارح ومنـــــها العين، فابـــن عبد ربـــه تحدث عنها تحت عنوان (الاستدلال باللحظ على ما في الضمير) وذكر أن العين بـــاب القلـــب – فما كان في القلب ظهر في العين[4]، والثعالبى تحدث عن ذلك تحت عـــنوان : (كيفية النظر وهيئاته) من رَمْقٍ وتحقيق وتبريق ولمح و تحديج وشخوص[5] والأنصـــاري الدمشقي صاحب (السياسة في علم الفراسة) تحدث عن أحوال العين من خمسة وجوه:

١- الوضع: كالجاحظة والغائرة.

٢- المقدار: كالعظيمة والصغيرة.

٣- الجفن : كالغليظ والرقيق ، والمستوِى والمنقلب وقلة الطرف وكثرته.

٤- الحدقة: وحركتها كالبطء والسرعة

---

(١) البيان والتبين للجاحظ: ٤٣/١ – وانظر كذلك : ديوان عمر بن أبي ربيعة: ١٨٠ تحقيق : محيي الدين عبدالحميد

(٢) الشوقيات – لأحمد شوقي ١٦٣/٢ ط دار اليوسف ، بيروت ١٩٨٧

(٣) الإشارات الجسمية: ٧١ وما بعدها. د. كريم زكي حسام الدين. ط: الأنجلو المصرية ١٩٩١م

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) ١٦١/٢ تحقيق أحمد أمين ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٥٢، وانظر الإشارات: ١٦٨

(٥) فقه اللغة وسر العربية – الثعالبى (أبو منظور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل : ١٢٣ تحقيق : مصطفى السقا : الحلبي ، مصر ، ١٩٧٢.

٥- المشابهة بأعين الحيوان[١]

أما صاحب (الزهرة)[٢] فقد أسهب في الاستـــشهاد بالشعر على ما تقوم به العين من تخاطب وتواصل بلغة لا تقل فصاحة عن الألفاظ فمسلم بن الوليد يعرف من عيني محبوبته الوصل والهجر:

جعلنا علامات المودة بينـــــنا ... دقائقَ لحظ هُنَّ أخفى من السحر

فأعرف منها الوَصل في لين طرفها ... وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

وآخر يتبادل مع محبوبته الإشارات خوف الأهل والرقباء:

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نَنْطِقْ ... كلاما تكلمْنا بأعيننا سرا

فنقضِي - ولم يُعلَم بنا - كلَّ حاجة ... ولم نُظهِر الشكوى ولم نَهتِك السترا

والعيون تعبر عن الشكوى:

تشكو فأفهمُ ما تقولُ بطرفها ... ويردُ طرفي مثلُ ذاك فتفهم

والعيون تتحاور:

أشارتْ بعينيها إشارة خائف ... حذارَ عيون الكاشحين فسلّمتْ

فردّ عليها الطرفُ مني سلامَها ... وَأَوْمَا إليها:اسكني فتبسمَـــــتْ

وَأَوْمَتْ إلى طرفي يقول لطرفها ... بنا فوقَ ما تَلْقَى فأشجتْ وتَيَّمَتْ

وتستطيع عين المحب أن ترسل رسالة مفهومة فيرد عليها المحبوب:

كتبت إلى الحبيب بطرفِ عيني: ... كتابا ليس يقرؤه سواه

فأخبرني تورُّدُ وَجْنَتَيْـــــــــــهِ: ... وكسرُ جفونه أنْ قد قراه[٣]

وابـــن حزم في طوق الحمامة يعقد باباً (للإشارة بالعين) يعطي فيه العين إمكانات اللغـــة المنطوقة، وربما أكثر من ذلك، إذ بإشارة العين يُقطَع ويُتواصَل ، ويُوعَد ويُهدَّد ويُنــتَهر ويُبسَط ويُؤمَر ويُنهَى، وتُضرَب بها الأوعاد، وبها يكون المنع والعطاء والسؤال والجواب والتنبيه على الرقباء[٤]

---

(١) السياسة في علم الفراسة: الأنصاري: أبو طالب شمس الدين بن محمد - ٣٩ ط : القاهرة - ١٩١٤م. وانظر كذلك : الإشارات الجسمية : ٧٣

(٢) الزهرة : أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني ١٤٨/١ وما بعدها تحقيق: إبراهيم السامرائي: ط: عمان ١٩٧٥ وانظر كذلك: الإشارات الجسمية: ٧٦

(٣) السابق: ١٤٨/١ وما بعدها

(٤) طوق الحمامة في الأُلْفَةَ والأُلاف لابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن حزم ٣١ وما بعدها تحقيق: حسن كامل الصيرفي - المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة.

وقـــد بلـــغ ابن حزم في دقة ملاحظة العين مبلغا يدعو للدهشة، إذ يفصل في هيئة الـــلحظ تفصيل العارف الخبير- وكأنه يقدم دروسا في التواصل بلغة العيون، فالإشارة بمؤخـــرة العين الواحدة: نهى عن الأمر، وتفتيرها: إعلام بالقبول، وإدامة نظرها: دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها: آية الفرح، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بســـرعة: تنبيه على المشار إليه، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام. ثم ينبه إلى أن كل هذه الحركات والإشارات لا يمكن تصويرها ولا وصفها إلا بالأقل منها، فإن سائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة. ويذكر صاحب (الإمتاع والمؤانسة) أثر غناء إحدى الجـــواري عـــلى المستمعين فيقول: (فهذا يَهَشُّ فؤادَهُ ويتحرك ساكنه ويومئ بقبلته ويغمز بطرفه ... وذاك إذا سمع انقلبتْ حماليقُ عينيه وسقط مغشيا عليه[1]

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نستجلي حركات العين وهيئاتها وإشاراتها فسنجد أن القـــرآن الكريم قد صور العين في معظم حالاتها معبرا عنها - كما قلنا بالبصر والنظر والرؤية والعين والطرف.

وسوف نتناول هنا سلوك العين في القرآن محاولين معرفة لغتها والسر البلاغي لكل شكل من أشكالها مستهدين في ذلك بالسياق والنظم البديع وذلك على النحو التالي:

١- دوران الأعين:

يأتي دوران الأعين في سياق الحديث عن المفارقة المخزية في موقف بعض المتخاذلين الجبناء في غزوة الأحزاب، قال تعالى:

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ....﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب]

إن المعوِّقـــين هنا هم نفر من المنافقين خرجوا للقتال مع المؤمنين لا رغبة في الجهاد، بـــل للإيهام بأنهم معهم، وهؤلاء أشحاء على المؤمنين بأي جهد لأن نفوسهم المريضة تضن بهذا الجهد. ويوسع أبو حيان هذا الشح ليشمل (البخل على المؤمنين بكل ما فيه نفع[2]] سواء أكان ماديا أم معنويا والقرآن يرسم لنا - في سخرية لاذعة، صور هؤلاء

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي ١٦٦/٢ وما بعدها. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ط٣ - لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٣ وانظر كذلك : الإشارات الجسمية: ٧٩

(٢) البحر المحيط : ٢٢٠/٧

(وقـــت الخوف)[1] وعند احتدام المعركة. إن جوارحهم تنطق بالهلع والفزع فإذا هم يـــنظرون إليك نظرة الجبان الرعديد يستنجدون بك لتنقذهم مما هم فيه وتشهد على ذلك عيونهم التي تدور [كدوران الذي يغشى عليه من سكرات الموت حذرا وخورا[2] ....] وتشـــبيه دوران أعيـــنهم وقت الخوف بدوران أعين المغشى عليهم عند الموت تشبيه جيد، لأن الجامع بين الاثنين هو الموت: محققا في المغشى عليه ومتوقعا في الخائفين وقت المعركة.

إن حركة العين بالدوران المبهم حيث لا ثبات في اتجاه معين حركة معروفة تصيب الخـــائف المفـــزّع وقـــت مداهمة الخطر، كما تصيب المحتضَر المغشى عليه وهو يعالج ســـكرات المـــوت. وهي في التعبير القرآني كناية عن هذه الحالة التي أصابت ولا تزال تصيب المنافقين في كل جيل، لكن التعبير هنا يكتسب بعدا جماليا أروع من غيره حين يـــرد في ســـياق وصف هؤلاء المنافقين قبل المعركة حيث الشح والبخل والبأس القليل وأثناء المعركة حيث الهلع والنظر المختلط وبعد المعركة عند زوال الخطر حيث التبجح بالـــبطولة الكاذبة دون حياء وحيث يسلقون المسلمين بالألسنة الحداد طلبا للغنائم ... وهـــذه المفارقة التصويرية غير المتوقعة تسجل على هذا الصنف من البشر صورة مثيرة للاشمئزاز باعثة على السخرية. وتصمهم بوصمة العار إلى يوم الدين.

٢. زَوَغَانُ البصر:

الزوغان في اللغة: الميل – يقال : زاغ البصر زَوْغًا : إذا مال وأمال وزاغ في المنطق زوغانا: إذا جـــــار، وزاغ البصر: كلّ. وزاغت الشمس : مالت ففاء الفيء[3].

وقـــد ورد زوغـــان البصر في سورة الأحزاب في سياق تذكير الله للمؤمنين بنعمته عليهم حين صرف عنهم الأحزاب الذين تجمعوا من قريش وغطفان واليهود وأحاطوا بالمديـــنة، قـــال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]

---

(١) عبر القرآن الكريم عن المعركة بقوله (فإذا جاء الخوف) والخوف مسبب عن المعركة على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته السببية. وفي التعبير (جاء الخوف) استعارة مكنية.

(٢) البحر المحيط : ٢٢٠/٧

(٣) القاموس المحيط : زوغ

لقـــد تملـــك الخوف قلوب المؤمنين حين رأوا المدينة تحاصر من فوقهم ومن أسفل مـــنهم وســـيطر الهلع على النفوس فزاغت الأبصار (بسبب ما استقر في داخلهم من الخـــوف حـــتى أظلمت، أو أنهم استكثروا منظر الأعداء فصاروا يرونهم مثليهم رأي العـــين[1] مالت الأبصار عن سَنَنِها ومستوى نظرها حيرة وشخوصا فعْلَ الواله الجَزِع وامتد الخوف إلى القلوب فاضطربت وخفقت خفقانا شديدا كأنها زالت عن أماكنها في الصـــدور [قالوا إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ربت وارتفـــع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة - ويجوز أن يكون ذلك مثلا في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة[2]]

وبلاغـــة التعـــبير هنا عن شدة الخوف والفزع بزوغان البصر وارتفاع القلوب إلى الحـــناجر أبلـــغ من أي تعبير ولقد جرى البلغاء على اعتبار ذلك كناية عن صفة الخـــوف ولكـــن صرف التعبير إلى الحقيقة في رأيي أبلغ من أي كناية . لأنه تصـــوير لأمـــر يقع بالفعل في دنيا الناس، لأن حركة العين والقلب هنا حركة إنسانية عامـــة، فحين نتعرض لمواقف الهول والفزع كالحرائق أو الكوارث الطبيعية من زلازل وبـــراكين أو حروب مدمرة، يؤثر ذلك على حركة العين فتزوغ أو تشخص أو تدور ويزداد القلب خفقانا حتى ليكاد ينخلع من مكانه.

وقـــد ورد زوغان البصر بالنفى في سورة النجم في قوله تعالى (ما زاغ البصر وما طغـــى) وذلك في مقام المدح للرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ إنه وهو في الحضرة العلويـــة ليلة المعراج كان ثابت البصر غير خائف ولا وجل (فما مال بصره هكذا ولا هكذا بل أثبت ما رآه مستيقنا صحيحا من غير أن يزيغ بصره أو يتجاوزه[3]

٣ـ شخوص البصر

أمـــا شخوص البصر فهو فتح العينين فلا تطرف، أو عدم استقرار البصر في مكان، وهي حالة - كما قلت منذ قليل - تعتري العينين عندما يفاجأ الإنسان بالهول والفزع - وقد ورد أنه (عندما يثار شخص فإن إنساني عينيه يمكن أن يتمددا إلى أربعة أضعاف حجمهمـــا العـــادي[4] ولا شك أن شخوص البصر يصاحبه هذا الاتساع والتمدد في حدقة العين بحيث تبدو العين في تلك الحالة أكبر من حجمها العادي.

---

(١) المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني : ٢١٧ تحقيق محمد سيد كيلاني.

(٢) الكشاف : ٥٢٦/٣

(٣) البحر المحيط : ١٦٠/٧

(٤) لغة الجسد : ٩٤

وقـــد ورد شـــخوص البصر في القرآن الكريم عند تصوير أهوال القيامة وذلك في سورتين هما سورة إبراهيم وسورة الأنبياء.

ففـــي ســـورة إبراهيم ورد قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم].

يأتي التعبير بالفعل المضـــــارع (تشخص فيه الأبصار) في سياق النهى التحـــذيري (ولا تحسبن الله غافلا) حتى لا يتمادى الظالم في ظلمه، لأن التعبير بالمضارع يستحضر صـــورة الفعل أمامه – وتقديم المتعلّق (فيه) على الفاعـــــل (الأبصار) يؤكد أن ذلك حـــادث فيه لا محالة. ويمعن القرآن في تشخيص المنظر وتجسيمه حين يُعْقِبُ شخوص البصر ببيان الحال التي سيكونون عليها (مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفـــئدتهم هواء) والإهطاع – كما يفسره الزمخشري – أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا تطرف[1] وهو معنى قريب من شخوص البصر، ويؤكد القرآن ذلك بتصويرهم مهرولين رافعي رءوسهم مفتوحي العيون فلا تنطبق أجفانهم وبأن قلوبهم من شدة الخوف والجبن هواء خالية من أية قوة.

أمـــا في سورة الأنبياء فقد ورد قوله تعالى ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء]

وتـــأتي كلمة (شاخصة) في سياق المفاجأة التي تدل عليها (فإذا هي) و(الفاء) إذا اجتمعـــت مع (إذا) تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد[2] والتعبير بـــــ (هى) المـــبهمة الـــتي توضحها كلمة (أبصار) بعدها يساعد في رسم مشهد المفاجأة المذهلة للأبصـــار – كما أن مشاركة الكلام لحركة العين بالشخوص حين يُعَقِّبُ الظالمون في حســـرة ونـــدم قائلين (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) هذا التعقيب (يظهـــر تفجع المفجوء الذي تنكشف له الحقيقة المروعة بغتة[3]) ويساعد هذا المشهد كلـــه على رسم صورة صادقة لأهوال يوم القيامة تؤدي دورها في التأثير في النفوس الغافلة عن هذا اليوم.

---

(١) الكشاف: ٢/٥٦٣

(٢) الكشاف : ٣/١٣٥

(٣) في ظلال القرآن : ٤/٢٣٩٨

٤. بريق البصر

وقد ورد بريق البصر – أيضا – في سياق الحديث عن علامات يوم القيامة وأهواله ردا على سؤال من ينكر هذا اليوم (يسأل أيّان يوم القيامة) ومن ثم يأتي الجواب الرباني بذكر بعض علامات هذا اليوم وما يعتري الإنسان والكون فيه من تغيرات (فإذا برق البصر. وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ[١]) وأول هـــذه العلامات – وهو ما يعنينا في هذا البحث – أن يفزع الإنسان من هول ما يرى فتبرق عينه وتلمع من شدة الفزع وتتحير حتى لا تطرف.

ويقول الزمخشري (برق البصر: تحيّر فزعا وأصله من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهـــش بصـــره، وفي قراءة : (وبلق) أي انفتح وانفرج[٢]) وهذه القراءة تؤدي معنى الدهشة والفزع أيضا ، ويرى الثعالبي أن معنى (فإذا برق البصر) : إذا غاب سواد عينيه مـــن الفزع[٣] . وهذه التفسيرات جميعها تقترب من معنى شخوص البصر الذي أشرنا إلـــيه سابقا مما يعني أن التعبير عن أهوال يوم القيامة يتنوع ويتوزع والهدف الديني من وراء ذلـــك كله هو التحذير من الغفلة عن يوم هذه صفاته وهذا ما سيحدث لهم فيه وعند ذلك يتحقق الزجر والردع والارعواء وتحقق البلاغة القرآنية – بهذا الأسلوب – هدفها الديني بجانب الهدف الجمالي التذوقي.

٥. العين القريرة

وفي مقابل تلك الأبصار الزائغة الشاخصة البارقة وهذه الأعين الدائرة الحائرة، يحدثنا القرآن عن نوع آخر من العيون الراضية الوادعة المطمئنة القريرة.

تلك هي عيون من غشيتهم السكينة وامتلأت قلوبهم بالرضا والتسليم المطلق لقضاء الله والفـــرح بـــه. فمن تتشبع روحه بهذه المعاني، ينعكس ذلك على منظر العين، فلا تشخص ولا تبرق ولا تزوغ ولا تدور. بل تكون قريرة بما تحمله تلك اللفظة من معاني الاستقرار والهدوء والصفاء.

وقـــد عـــبر القرآن الكريم عن تلك العين في الحالات التي اقتضت ذلك وبرز هذا واضحا في حديث القرآن عن أم موسى عليه السلام وعن امرأة فرعون وعن أم عيسى عليه السلام. كذلك عند الحديث عن صفات عباد الرحمن.

---

(١) القيامة : ٦–١٠

(٢) الكشاف : ٤/٦٦٠

(٣) فقه اللغة : ١٢٣

فالله سبحانه وتعالى يَمُنُّ على موسى ويُذَكِّرُهُ بنعمته عليه إذ حفظه وهو في التابوت السابح فوق عباب اليمّ ، وأرجعه إلى أمه الحزينة كي تقر عينها ولا تحزن قال تعالى: (فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) [طه] وفي موضع آخر فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ [القصص]).

فالتعبير القرآني بالعين القريرة هو كناية عن سكون النفس واطمئنان القلب إذ كان فؤاد أم موسى فارغا كما أخبرنا القرآن الكريم ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]

وفي سياق قصة موسى (طفل التابوت) يأتي التعبير بالعين القريرة على لسان امرأة فرعون حين تطلب من زوجها الجبار الذي كان يقتل كل صبيان قومه - ألا يقتل هذا الطفل ليظل قرة عين لها وله ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص] فموسى - بما أوتي من براءة ووداعة ونور، وبما ألقى الله عليه من المحبة من كل من رآه - كان مصدر سرورها وراحة عينها، ولا شك أن الإنسان يأنس لبراءة الأطفال ووداعتهم وينعكس ذلك على الجوارح. والعين هي مرأة القلب فيظهر عليها هذا الفرح والهدؤء المكنى عنه بـ (قرة عين).

وأما أم عيسى (مريم عليها السلام) فإن حالتها حين جاءها المخاض وقد تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذه اللحظة التي ستواجه فيها قومها بطفل من غير أب وما كان أبوها رجل سوء وما كانت أمها بغية. أقول: إن حالتها كانت تحتاج إلى من يهدئ روعها ويطمئن قلبها ـ فكانت معجزة عيسى أن ناداها من تحتها ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا...[مريم] أي طيبي نفسا ولا تغتمي وارفضى عنك ما أحزنك وأهمك.. إن(قرّى عينا) في موضعها من السياق تلخص حالة الرضا والثقة بالله وبنعمته عليها.

ويتكرر ذكر العين القريرة في دعاء الصالحين من عباد الرحمن في سورة الفرقان ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] فالزوجات الصالحات والذرية الطيبة

المطيعة لله قرة عين يُسَرُّ برؤيتهم عباد الله (فليس شئ أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله[1] وهكذا نرى العين في موضع الرضا والطمأنينة هادئة ساكنة لا قلق فيها ولا اضطراب – هذا إذا كان التعبير على الحقيقة، أما بالمجاز فهي كناية عن الرضا القلبي والاطمئنان النفسي. وكلا التوجيهين جائز.

٦- الأعين الدامعة

وردت الإشارة إلى العين الدامعة في موضعين:

الموضع الأول قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة].

نزلت الآية في النجاشي وأصحابه حين استمعوا من جعفر بن أبي طالب إلى سورة مريم فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع[2] والبكاء بهذه الصورة يدل على رقة قلوبهم ومقدار تأثرهم بالقرآن الكريم والتعبير بالفعل المضارع (تفيض) يستحضر الصورة من ذاكرة التاريخ ليعرضها في كل حين. ثم إن مادة (تفيض) تدل على امتلاء عيونهم بالدمع وفيضانه من جوانبها وذلك أبلغ في التعبير عن كثرة بكائهم عندما عرفوا الحق. وإسناد الفيض إلى الأعين وإن كان حقيقة للدموع كما قيل.

ففاضتْ دموعُ العين منِّي صبابةً

هو إقامة للمسبب مقام السبب، لأن الفيض مسبب عن الامتلاء فالأصل ترى أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض[3] وذلك مبالغة في البكاء الناتج عن شدة إيمانهم بالله، وطمعا في أن يدخلهم ربهم مع القوم الصالحين ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة].

ولا شك فى أن الدموع دليل على رقة القلوب وشفافية الوجدان، وإذا كثرت حتى تفيض، دل ذلك على شدة التأثر.

---

(١) الكشاف : ٢٩٦/٣

(٢) انظر أسباب النزول للسيوطي : هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم.

(٣) البحر المحيط : ٥/٤

والموضع الثاني قوله تعالى ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة].

وهـو شـبيه في تعبيره ومغزاه بالموضع الأول إلا أن دافع البكاء هنا كان الحزن الشـديد لعدم مشاركتهم الرسول في الجهاد في غزوة تبوك بسبب عجزهم عن تدبير الراحلة ونفقات الغزو.

٧- الأعين الخائنة

ورد الحديث عن تلك الأعين في موضع واحد في القرآن الكريم هو قوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافـر] للتدليل على شمول عـلم الله لكـل شـيء. فهذه النظرات الخائنة التي تخفي الغدر والبغض للمؤمنين وما يصـاحبها أحيانا من (كسر جفن وغمز ونظر يفهم معنى ويخفى معنى آخر) لا تخفى علي الله كما لا يخفى عليه ما يكتمونه في صدورهم ... وفي هذا من التحذير والتهديد مـا يـردع العبد ويدفعه لإخلاص الطوية وصدق العقيدة. وإضافة الخيانة إلى الأعين بـتقديم (خائنة) عليها أبلغ في التعبير من (الأعين الخائنة) لأن التقديم هنا يوحى بشناعة الخيانة وعظم جرمها كما يوحى التقديم أيضا بأن الخيانة طبع أصيل عند هؤلاء القوم.

إن النفوس المجبولة على الغدر والخيانة والقلوب التي تخفى الكراهية.. مهما حاولت إخفاءها لابد أن تفضحها العيون، لأنها تعبر عما في النفوس فتكشف المستور في حنايا الصدور وقد أورد الجاحظ في ذلك قول القائل:

العينُ تُبدي الذي في نفس صاحبها ... من المحبة أو بُغضٍ إذا كانا
والعينُ تنطقُ والأفواهُ صامـتةٌ ... حتى تَرى من ضمير القلب تِبْيانا[(١)]

٨- غِشاوة البصر:

تذكر مادة (غشى) في المعجم ويراد بها التعمية على الشيء وتغطيته، ويقال: (على بصره غُشاوة) بضم الغين وكسرها: أي غطاء[(٢)]

وغشـاوة البصـر: حركة لا إرادية تحدث للإنسان فتحجب رؤية العين، إذ يُغطِّي إنسـانُ العين بمواد تفرزها العين نتيجة الخوف الشديد أو عندما يغمى على الشخص

(١) البيان والتبين : ٧٩/١

(٢) القاموس المحيط : غشى

بسبب مرض أو بسبب مفاجأته بخبر محزن أو مفرح يأتيه على غير توقّع . وهي حالة تصيب المحتضَر أيضا وقد يصحبها دوران العين أو شخوصها وثباتها.

وقد استخدم القرآن الكريم تلك الحركة في عدة آيات يصور بها مواقف مختلفة وبدلالات يحددها السياق (فهي ترد مرة في جانب الكفار فتصبح نقمة ووبالا، ومرة ترد في جانب المؤمنين فتكون رحمة وأمانا وهي في جانب الكفار غالبا ما تكون مصحوبة بالختم على القلوب والأسماع. وذلك للتأكيد على صلادة القلوب وشدة الإعراض عن الإيمان ولبيان أن هذا الإعراض أو الصدود قد بلغ منتهاه، لأن هؤلاء عطلوا منافذ الحس والإدارك لديهم فلا يريدون الانتفاع بما منحهم الله من حواس السمع والبصر والقلب في الاهتداء إلى نور التوحيد. ومثل هؤلاء لا يجدي معهم النصح ولا ينفعهم النذير، إذ يستوي عندهم أن تنذرهم بعواقب كفرهم أو لم تنذرهم لأنهم صدوا أنفسهم عن قبول الحق ابتداء، واتخذوا أهواءهم الضالة آلهة يعبدونها من دون الله. فكانوا كمن غطى عينيه بغطاء سميك فهو لا يرى الطريق.

نرى ذلك واضحا في سورة (البقرة)، وسورة (الجاثية)، وسورة (ياسين).

ففي سورة البقرة يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ [البقرة].

إن الكفار هنا قد ختم الله على قلوبهم وأسماعهم وغطى على أبصارهم بتلك الغشاوة التي تشتمل على العين وتحيط بها (فإن بناء غشاوة – على (فعالة) بالكسر والفتح – كما يقول الزمخشري – لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة[1] والعصابة والعمامة تشتملان على الرأس وتغطيانها وتحيطان بها، وكذلك فعل الغشاوة بالعين، وهذا أبلغ في حجب الرؤية.

والختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار مجاز طريقه الاستعارة تارة والتمثيل تارة أخرى.

فالاستعارة: أن تجعل قلوبَهم – لأن الحق لا يَنفُذُ فيها ولا يَخلَصُ إلى ضمائرها من قِبَلِ إعراضهم عنه واستكبارهم عن قوله واعتقاده، وأسماعَهم، لأنها تمجه وتنبوعن

---

(١) الكشاف: ١/٤٨

الإصـغاء إلـيه وتعاف استماعه – كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارَهم – لأنها لا تجتـلي آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة، كما تجتليها أعين المبصرين – كأنما غطى عليها وحجبت وحيل بينها وبين الإدراك.

وأمـا التمثـيل : فأنْ تُمَثَّلَ حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينية التي كَلِفُوهَا وخلقـوا من أجلها – بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية[1] وسـواء أتحققـت بلاغـة الختم والغشاوة عن طريق الاستعارة أم التمثيل فإن العبرة المسـتفادة مـن السياق هي: أن مثل هؤلاء لا يرجى منهم استجابة لدعوة الحق سواء أأنذرهـم الرسول أم لم ينذرهم، وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا تذهـب نفسه عليهم حسرات لعدم إيمانهم ، فقد بلّغ الرسالة وأدى الأمانة وليس عليه هدَاهم ولكن الله يهدي من يشاء.

وقـد جاء ختام سورة البقرة (ولهم عذاب عظيم) ليصور النهاية المتوقعة لكل من عطلّ حواسه وألغى مداركه بالعناد والاستكبار.

وفي سـورة الجاثـية يقـول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية]

إن المـتأمل في نظـم هـذه الآية يرى أن أسلوب الاستفهام قد غلب عليها. وهو أسلوب يتدرج من التعجب والإنكار ويترقى إلى النفي ثم يختتم بالحث والتحضيض إذ يبدأ بالتساؤل المثير للدهشة والعجب من هذا الذي يتخذ هواه إلهه . ثم بالتساؤل للنفى والاستبعاد لأن من أضله الله فلن يجد له هاديا ... وينتهي بالحث على التذكر والتفكر ... ووسـط هـذا الجو المليء بالدهشة والاستبعاد والاستغراب يجـيء الختم على السـمع والقلـب وتغشية البصر لتأكيد عظم الجرم الذي ارتكبه هؤلاء حين انقادوا لهواهـم انقيادا أعمى فكأن هذا الهوى صار إلهاً معبودا واجب الطاعة دون تفكير ... ومثل هؤلاء لا فائدة ترتجي منهم فلن يستطيع أحد هداهم بعد أن أضلهم الله.

وفي سورة (يس) يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ

---

(١) السابق: ٤٩

خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [يس]

إن غشاوة الأبصار في سورة "يس" تتميز عن سابقتيها بأنها وردت في سياق تصوير الكفـــار في صـــورة بشعة شدت فيها أيديهم إلى أعناقهم وربطت بطوق تحت أذقانهم يــرفع رءوســـهم قسرا فلا يملكون حرية النظر، ثم ألقى بهم بين سدين يحجبان عنهم الـــرؤية من أمامهم ومن خلفهم، ولنا أن نتأمل صورهم تلك وهم مقيدون محبوسون مغطى على أبصارهم. فهل يرجى من هؤلاء رؤية الحق؟

وقد عرض الزمخشري هذه الصورة على سبيل التمثيل بقوله: (مثل تصميمهم على الكفـــر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم. في أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله[1].

ولا شـــك أن بلاغـــة التمثيل تكمن كما قال عبد القاهر في أنه إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهَةً وكساها مَنْقَبَةً، ورفع من أقدارها وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفا[2].

ولعل الغرض البلاغي من عرض الكفار بهذه الصورة القبيحة البشعة هو: (السخرية والتعجب) من مثل هذا الصنف من الناس الذين يجعلون بينهم وبين رؤية الحق كل هذه الحواجـــز التي ذكرناها... هذا بالإضافة إلى تعزية الرسول وتسليته لعدم إيمان من هم عـــلى شاكلتهم ، والتوجة بدعوته وإنذاره وتبشيره إلى فريق آخر ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس].

وبقى أن نقرر أن القرآن الكريم – وقد عرض لنا صورة من أصابتهم غشاوة البصر في الدنيا فلم يروا الحق أو تعاموا عنه – قد عرض الصورة المقابلة لذلك يوم القيامة في سورة (ق) وذلك حين تنقشع تلك الغشاوة وينكشف ذلك الغطاء الذي غطى العيون

---

(١) الكشاف : ٥/٤

(٢) انظر : أسرار البلاغة ٢٢٥/١ تحقيق خفاجي طـ ٣ مكتبة القاهرة مصر ١٩٧٥

زمنا ... فيعود البصر حديدا وتتضح الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان. قال تعالى ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق] شبه سيطرة الغفلة على نفس الكافر في الدنيا بالغطاء الذي يغطى الجسد كله أو بالغشاوة التي تغطى عينيه فلا يبصر شيئا ثم تراه يوم القيامة وقد زالت عنه الغفلة وانتزع من على جسده الغطاء وذهبت غشاوة العين فصار بصره حديدا، ولكن أنى له النجاة ولطالما أنذر وحذر؟

لكن التغشية على الأبصار في السياق الإيماني وهو سياق النعمة والرحمة والإحسان ترد في مجال التذكير بنعمة الله على المؤمنين أثناء القتال في غزوة بدر إنها هنا عامل قوى من عوامل انتصار القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال : ١١]. وقال في سورة آل عمران ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ...﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران]

النعاس في اللغة ليس هو النوم المستغرق المذهب لجميع الحواس، بل هو كما يقول الفيروزآبادي : الوسن أو فترة في الحواس[1]

إن النعاس الذي يغشى العين يَضعُ غطاء شفيفا على الباصرة يريحها من الإرهاق – ويفتر الحواس المشدودة بالخوف والترقب فيصحو الإنسان بعدها نشيط الذهن قوى الجسم حديد البصر، والتغشية: التغطية[وهي استعارة: جعل ما غلب عليهم من النعّاس غشيانا لهم[2]

وقد كان المسلمون في تلك المعركة غير المتكافئة محتاجين إلى ذلك النعاس الذي علل بأنه (أَمَنَةً)[3] وتظهر دقة التعبير القرآني بهذا اللفظ من جهتين:

الأولى : إفادة أن (الأَمَنَة) غير (الأمْن)، لأن الأَمَنَة طمأنينة مع بقاء أسباب الخوف، والأمن يكون بزوال أسبابه فالمعركة لم تبدأ بعد والعدو مازال متربصا.

---

(١) القاموس المحيط : نعس

(٢) البحر المحيط : ٤/ ٤٦٧

(٣) (أَمَنَة) تعرب في سورة الأنفال : مفعولا لأجله ، ولكنها في سورة آل عمران مفعول به و(نعاسا) بدل منه.

الثانـــية: مع أن أسباب الخوف ما زالت قائمة فإن التعبير بأَمَنَة فيما أرى – بتوالي الفتحة على حروفها الأربعة (أَمَنَةً) مع التنوين المنغّم – يعطى إحساسا عجيبا بالراحة النفسية عقب هذا النعاس الخفيف يتناسب مع الجو العام للسياق.

وفي مقـــابل الأمنة والطمأنينة التي تنزل بالمؤمنين في وقت القتال بسبب ذلك النعاس الخفـــيف الذي يغشى أعينهم، تجئ غشية أخرى للكفار والمنافقين مباينة للأولى بسبب الهلـــع والرعب والفزع وقت المعركة ممـــــا يفت في عضدهم ويـــؤدى إلى هزيمتهم فهم (...يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ...) [محمد : ٢٠] وهــــم (... تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ) والمقابلــــة في القــــرآن الكريم بين هذه المواقف تظهر الفرق بين جيش الله وجيش الشيطان وبضدها تتميز الأشياء.

٩- الطمس على الأعين:

ورد الطمس على الأعين في موضعين هما:

١- قولـــه تعـــالى في ســـورة "يس" ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يس]

٢- قولـــه تعـــالى في ســـورة القمر ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القمر] والطمس في اللغة المحو والإزالة – وهــــو في الآيـــتين مقصـــود به (تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة كسائر الوجه)[١] والطمس على الأعين في آية (يس) يأتي في سياق التهديد والوعيد للكفار الذين أعطاهم الله نعمـــة البصر ولكنهم يتعامون عن نور الحقيقة فأولى بهم أن تمسح تلك العيون (فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المألوف لهم الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم لم يقدروا، وتعـــالى عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلا عن غيره....)[٢] إن مسح العين وتسويتها بالوجه صورة قبيحة شائهة يوقع مجرد تصورها الرعب في القلوب فكيف إذا هـــددوا بذلك وبما هو أشد وهو الآية التالية التي تهدد بالمسخ والتجميد في مكانهم فلا يستطيعون المضى ولا الرجوع ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا

---

(١) الكشاف : ٤/٢٤، ٤/ ٤٣٩

(٢) الكشاف: ٤/ ٢٥

ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ [يـس] وكل هذا التهديد الدنيوي يقابله ما سبق قبل ذلك بالتهديد الأخروي بالختم على الأفواه وترك الجوارح تشهد على أفعالهم ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ [يس]

أمـا طمـس الأعين في سورة القمر فليس في سياق التهديد ... بل إنه إخبار بما حـدث فعلا لقوم لوط حين راودوه عن ضيفه منحرفين بذلك عن الفطرة السوية غير آبهين بنصائحه وتوسلاته وتهديداته، فكان (أن طمس الله أعينهم وجعلها كسائر الوجه ليس لها شق[1]

١٠- التأثير على الأعين بالسحر:

أما التأثير على الأعين بواسطة السحر، فقد ورد في قوله تعالى عن سحرة فرعون ﴿ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ [الأعـراف] فحـين ألقـى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم، اسـتطاعوا التأثير على عيون الناس بما صاحب الإلقاء من تعاويذ وهمهمات يلجأ إليها السـحرة، فأروها ما ليس حقيقة حتى إنه قد خيل إليهم أنها حيات تسعى. وقد أثبتت بعـض الأبحـاث العلمية أن في مقدور الساحر - عند التركيز الشديد - إطلاق أشعة خفيفة تصيب جهاز العين بالاختلال فيرى الشيء على خلاف حقيقته، وهذا ما حدث من سحرة فرعون إذ جاءوا - كما يقول القرآن - بسحر عظيم وعند ذلك أوحى الله لموسى عليه السلام أن يلقي بمعجزته ﴿ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ [الأعراف].

إن المعجـزة لـن يغلـبها السحر أبـدا، ولذلك عندما وقع الحق بطل السحر ﴿ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأعـراف] زالت الغشاوة التي أحدثها السحر في عيون الجميع حين رأوا عصـا موسـى تتحول إلى حية حقيقية معجزة تلقف ما خيل إليهم منذ قليل أنها حـيات وثعابين... إن السحرة أدركوا بخبرتهم أن موسى ليس بساحر. وإنما هو نبي مؤيد من الله بمعجزة العصا. ولذلك ثبتوا على إيمانهم أمام تهديدات فرعون لهم بتقطيع

---

(١) الكشاف : ٤/٤٣٩

الأيدي والأرجل والصلب داعين ربهم قائلين (...رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾)[الأعراف]

١١. حركة الغَمْز واللمز والهَمْز

تـــرد حـــركة الغمز واللمز والهمز في القرآن الكريم في مواقف يغلب عليها جانب الطعـــن والعيب والاحتقار والاستهزاء بالمنظور إليه ـــ وهي مواقف تنسجم مع المعنى اللغوى لهذه المفردات التي تعنى في المعاجم الإشارة بالعين إشارة فيها هذا الجانب.

فالغمز: الإشارة بالجفن أو باليد طلبا إلى ما فيه معاب ومنه قيل : ما في فلان غميزة أي نقيصة يشار بها إليه(1)

واللمز : العيب والإشارة بالعين ونحوها(2)، واللُّمَزُ : على وزن (فُعَل) : بضم الفاء وفتح العين كثير الطعن خفية بالإشارة أو باللسان أو بالعين أو بغيرهما(3)

والهَمْز: والهـــُمَزَةُ : بالمعنى نفسه والهَمْز: الغمز أيضا(4)

وبالـــرجوع إلى سياق كل آية نجد تلك المعاني مجسمة شاخصة تتحقق فيها بلاغة السياق القرآني لتؤدي دورها في تصوير الموقف والتأثير في السامعين.

(أ) ففـــي قولـــه تعـــالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففـــين] تـــأتي حركة التغامز بـــالجفن أو باليد في سياق التقابل القرآني بين ما كان يفعله المجرمون الكافرون في حق المؤمنين في الدنيا، فهم يسخرون منهم بالضحك عليهم تارة، وبالإشارة القبيحة إليهم بـــالأعين أو بـــالأيدي تارة أخرى، فإذا هم أنفسهم – في الآخرة – موضع السخرية والضحك من قبل المؤمنين ، والجزاء من جنس العمل ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين].

إن إشارة العين بالتغامز حركة منتزعة من دنيا الناس تتكرر في كل زمان(1) والقرآن حين يعرضها علينا نحس كأنه منزل الآن ليصور ما يحدث من فريق من الناس لا يراعون أدبا ولا حياء حين تصدر عنهم تلك الحركات القبيحة.

---

(١) المفردات في غريب القرآن . الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسن بن محمد مادة : (غمز) تحقيق محمد سيد كيلاني . نشر : كراتشي – باكستان

(٢) القاموس المحيط : لمز

(٣) تفسير وبيان القرآن الكريم : محمد الحمصى ، سورة المطففين

(٤) المرجعان السابقان

(ب) أما حركة العين باللمز فقد وردت منفردة في ثلاث آيات، ومشتركة مع الهمز في آية واحدة . والأيات الثلاث هي:

١- قوله تعالى: وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ .... الحجرات : ١١

٢- وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ التوبة

٣- وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ التوبة.

٤- أما المشتركة مع الهمز ففي قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ الهمزة

١- في الآية الأولى ينهى الله عن اللمز في سياق النهى عن رذائل اجتماعية أخرى كالسخرية والتنابز بالألقاب والاغتياب - وقد سبق أن قلنا إن اللمز هو الطعن والعيب في الغير باللسان أو بالإشارة بالعين ونحوها - ومعنى لا تلمزوا أنفسكم: لا تلمزوا الناس فيلمزوكم فتكونوا في حكم من لمز نفسه وعابها، وفي التعبير بـ (أنفسكم) دعوة ضمنية إلى التماسك الاجتماعي، فالمسلم ينبغي أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكرهه لنفسه.

٢- وفي الآية الثانية : يفضح القرآن الكريم المنافقين حين يشير إلى ما حدث من بعضهم ممن عابوا على لرسول الله وطعنوا عليه اختصاصه المؤلفة قلوبهم بمزيد من الصدقات واتهموه بعدم العدل في التقسيم. ولو كان هذا الاختصاص بالمزيد لهم لرضوا عن الرسول و لم يطعنوا عليه.

٣- وهؤلاء أنفسهم في الآية الثالثة - يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ويعيبون عليهم بالقول أو بإشارة العين، فمن تطوع بالكثير كعبد الرحمن بن عوف

---

(١) في عام ١٩٥٢ - استطاع عالم الانثروبولوجيا الأمريكي (بيردوسل) في كتابه (مدخل إلى علم الكينات أو الحركة الجسمية) - استطاع أن يصنع أبجدية حركية بالرسم ومنها أن الغمز بإحدى العينين (شكل بيضاوي على يساره شرطه هكذا ⬭ -) وهو يعتقد أن الحركات الجسمية تعد نظاما قائما بذاته مثلها في ذلك مثل اللغة، فكان من الضروري أن توضع لها أبجدية ذات رموز خاصة بها (انظر : دراسات في علم اللغة) ١٧٠- ١٧١

يلمزونه بالرياء، ومن تطوع بالقليل كأبي عقيل الأنصاري يلمزونه ساخرين من إعطائه القليل[1]

ومن ثم كان ختام الآية مشاكلا لسخريتهم (سخر الله منهم ولهم عذاب اليم) ولكن سخرية الله أنكى وأشد، لأنها مصحوبة بالعذاب الأليم.

٤- أما آية الهمزة، فإن الهمز كما سبق أن أشرنا هو الغمز بالعين، وكل من الهمز والغمز طعن وعيب وسخرية بقصد كسر أعراض الناس والغض من أقدارهم، وقد وردت في مفتتح السورة بصيغة (فُعَلَة) للدلالة على أن ذلك صار عادة منهم ومثلها: اللُّعَنة والضُّحَكَة[2]

وللتنفير من هذه الصفات الكريهة وتلك الحركات المعيبة توعد الله مرتكبها بالويل والهلاك والنبذ في الحطمة التي تحرق الأفئدة، وبالحبس في نار جهنم فلا يخرجون منها أبدا (كلا لينبذن في الحطمة ...) الخ.

١٢- الازدراء بالعين:

الازدراء فعله (ازْدَرَيْتُ على وزن افْتَعَلْتُ) وفي القرآن : (تزدري أعينكم) ، أي: تستقلهم وتستهين بهم[3]

والازدراء بالعين هو النظر إلى الغير باستهانة واحتقار، يقال: أزري به إذا قصر به – وقد وردت تلك النظرة المستعلية في وصف قوم نوح لأتباعه بأنهم من أراذل الناس وأفقرهم، وبوصف نوح بأنه بشر مثلهم لا يستحق الرسالة – فيرد عليهم نوح عليه السلام قائلا كما ورد في الآية ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة هود]

ومجيء كلمة (تزدري) بهذه الصيغة الخشنة (**تفتعل**) يدل على وقاحة تلك النظرة وغلظة أصحابها وجلافة طباعهم – وذلك في مقابل رقة نوح عليه السلام مع أتباعه الفقراء وطمأنتهم بأن الخير الذي يضمره الله لهم يتناسب مع ما يعلمه في نفوسهم من الخير.

---

(١) انظر الكشاف : ٤/٢٩٣ – ٢٩٤

(٢) السابق : ٤/٧٩٥

(٣) المفردات في غريب القرآن مادة (زري)

١٣- الإزلاق بالبصر:

مـــن زلق فلانا ببصره إذا نظر إليه نظر متسخط[(١)] ولم يسمع الزلق والإزلاق إلا في القــرآن الكــريم وأصل الزّلق: المكان الدحض الذي لا نبات فيه[(٢)] وقد ورد الإزلاق بالبصــر في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم] والسـياق هو الأمر بالصـبر على أذى الكفار وعدم اليأس من رحمة الله وعدم الضجر والغضب مما يلاقيه محمد ﷺ من قومه، فلا يكون ضجرا كصاحب الحوت يونس عليه السلام.

إن الكفار هنا يزلقون الرسول وصحبه بنظرات حادة تنم عن فرط العداوة وقد فسر الزمخشري ذلك بقوله: (يعني أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزرا بعيون العدواة والبغضـــاء يكادون يزلقون قدمك أو يهلكونك من قولهم: نظر إليّ نظرا يكاد يصرعني ويكاد يأكلني، أي: لو أمكنه بنظره الصرع والأكل لفعله كقول الشاعر:

يتقارضون إذا التقوْا في موطنٍ   نظرًا يُزِلُّ مواطئ الأقدام[(٣)]

فإشارة العين هنا كناية عن الحقد و الكراهة.

والمتأمل في مادة (زلق) وعلاقتها بالنظر - بعد انتقالها من المعنى الحقيقي وهو الملاسة والنعومة والأرض البيضاء التي يزلق عليها زلقا لملاستها[(٤)] إلى المعنى المجازي وهو النظر شـــزرا بمؤخـــرة العين بغضا وحسدا، المتأمل في ذلك يجد أن التعبير القرآني عن ذلك بـــالفعلين (يكاد ليزلقونك) مع تأكيد الثاني باللام، يوحي بأنها نظرة مهلكة تظهر مدى كراهية الكفار للرسول ومن ثم يطالب القرآن الرسول بالصبر على ذلك بقوله ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم]

١٤- خشوع البصر:

ورد خشـــوع البصر في القرآن عند الحديث عن البعث ساعة الخروج من المقابر وعند الحساب وذلك في ثلاث آيات هي قوله تعالى:

---

(١) القاموس المحيط : زلق

(٢) المفردات في غريب القرآن (زلق)

(٣) الكشاف : ٥٩٧/٤ والبحر المحيط : ٧ / ٣١٧

(٤) أساس البلاغة : زلق

-﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر]

- ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج]

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم]

والخشوع في اللغة هو الخضوع والذل والقرآن في الآيتين الأولى والثانية يتحدث عن المكذبين بيوم القيامة فينقل لهم صورهم في الآخرة وهي مغيبة في الزمن القادم لتنبعث أمامهم شاخصة في دنيا الحاضر كي يتعظوا ويؤمنوا فلعلهم حين يرون أنفسهم يخرجون من قبورهم وقد غضوا أبصارهم في خشوع وذلة وانكسار تدركهم الرهبة والخوف من هذا اليوم الذي طالما حذروا من هوله و لم يصدقوه.

خشوع البصر إذن كناية عن الذلة وهي في العيون أظهر منها في سائر الجوارح وكذلك أفعال النفس من ذلة وحياء وصلف وخوف وغير ذلك [1] فمع أن الجوارح كلها في هذا اليوم يدركها هذا الخشوع إلا أن العين كما قلنا سابقا هي المرآة التي تنطبع عليها سائر المشاعر والخلجات ، ولقد ساعدت جملة (ترهقهم ذلة) بالفعل المضارع على استحضار الصورة والتأكيد على استمرار حالة الذل التي تخشع منها الأبصار.

وفي هذا السياق أيضا يأتي قوله تعالى مصورا حال الكافرين عند العرض على جهنم ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ .... ﴿٤٥﴾﴾ [الشورى]

فمع الخشوع والذل مما يلحقهم، فإنهم ينظرون إلى جهنم من طرف خفي يفسره الزمخشري بأنه تحريك ضعيف للأجفان يسارقون به النظر خفية كما يفعل المصبور حينما ينظر إلى السيف الذي فيه حتفه وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينه منها كما يفعل في نظره إلى المحاب[2]

---

(١) البحر المحيط : ٨/ ٧٦

(٢) الكشاف : ٤/ ٢٣١

١٥- غضُّ البصر ومدُّه:

(أ) ورد الأمر بغض البصر للرجال وللنساء في قوله تعالى:

= ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

= ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿٣١﴾ ﴾

[النور]

وذلك في سياق الحديث عن الآداب العامة التي ينبغي للمسلم أن يتحلى بها فقد سبقت الآيتان بآيات أخرى تحث على عفة اللسان عقب حديث الإفك وبالنهى عن رمى المحصنات الغافلات وبالحديث عن آداب الاستئذان وذلك حفاظا على المجتمع المسلم طاهرا نقيا. ومن تلك الآداب غض البصر عن المحرمات (يغض الرجل بصره عن المرأة الأجنبية، وتغض المرأة بصرها عن الرجل الأجنبي) ومعنى غض البصر: خفضه إلى أسفل واللفظ يوحى بما يصاحبه من خفض البصر وانكسار العين وذلها بأن على المؤمن ألا يتبجح بالنظر إلى ما حرم الله. وفي ذلك حفاظ على المجتمع المسلم من الوقوع في الرذائل. وقد درجت الجماعة العربية على استعمال (غض الطرف) عند الفخر بالحفاظ على الجار. يقول عنترة:

وَأَغُضُّ طرفي إنْ بَدَتْ لِيَ جارتي ... حتى يُواري جارتي مَثْوَاها[1]

واستعملت ذلك في الهجاء، يقول جرير:

فَغُضَّ الطرَفَ إنك من نُمَيْر ... فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا[2]

(ب) وفي مقابل الأمر بغض البصر يأتي النهى عن مده في آيتين متشابهتين هما قوله تعالى لمحمد عليه السلام والخطاب لعموم الأمة:

= ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر]

= ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه]

ولكن مجال النهى لا يقصد به غض البصر عن النساء المحرمات كما في سورة النور، بل يقصد به النهى عن النظر المؤدي إلى الطمع فيما عند الغير من متاع الحياة الدنيا،

---

(١) ديوان عنترة : ص ٨٦ – كرم البستاني – دار صادر – بيروت بدون تاريخ)

(٢) شرح ديوان جرير : إيليا حاوي ص ٩٧ ط ١ – دارالكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢

فلفظ (أزواج) هنا لا يعني الزوجات، بل يراد منه (أصناف من الكفار[1] والقرآن الكريم ينهى محمدا وصحبه عن تمنى ما أعطى للكفار من ملذات الدنيا، لأنه أعطى ما هو أفضل من ذلك وهو السبع المثاني والقرآن العظيم في الدنيا بالإضافة إلى ما ادخره له في الآخرة من الرزق (ورزق ربك خير وأبقى).

وقد ساعدت الصياغة اللغوية للفعل المضارع المنهى عنه (لا تَمُدَّنَّ) على ضرورة الالتزام بهذا الخلق الإسلامي الرفيع، لأن المادة اللغوية للفعل (مد) عند إسنادها إلى العين توحى بامتداد البصر إلى أبعد مجال وهذا يؤدي إلى أكثر من النظر المجرد، إنه يؤدي إلى الطمع فيما عند الغير. ولذلك جاء النهى مع التأكيد بالنون المشددة وتشديد الدال ليدل على التشدد في هذا النهى في الحاضر والمستقبل.

١٦ـ لمح البصر:

ورد التعبير بلمح البصر في القرآن الكريم في آيتين هما:

(أ) قوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ [القمر]

(ب) وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل]

وقد استخدمت حركة اللمح هنا على سبيل التشبيه، فلمح البصر: هو النظرة العجلى الخفيفة، أو هو اختلاس النظر بسرعة وهو معنى يتناسب مع سياق الآيتين اللتين تتحدثان عن قدرة الله تعالى وسرعة نفاذ قضائه وقدره في الدنيا(عند الخلق) وفي الآخرة (عند البعث)

ففي الأولى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) معناها: ما خلقنا الشيء إلا بكلمة واحدة وهي (كن) فيتم الخلق بسرعة خاطفة كلمح البصر. وهو كما يقول أبو حيان: تشبيه بأعجل ما يكون[2] والآية كلها كناية عن سرعة الإيجاد بأسرع مما يدركه وهمنا.

والآية الثانية: كناية عن سرعة القدرة الإلهية على الإتيان بالساعة وهي يوم القيامة التي ينكرها الكفار فأمره فيها كلمح البصر وهو (تمثيل للقرب، كما تقول: ما

---

(١) الكشاف : ٢/ ٥٨٨

(٢) البحر المحيط : ٨/ ١٨٣

السنة إلا لحظة[1] فإن أسرع الأحوال والحوادث - طبقا لتصوراتنا - هو ما تم في لمح البصر- وزيادة (أو هو أقرب) في هذه الآية لتأكيد هذه السرعة حتى لا يتمادي الكفار فيما هم فيه من ضلال.

١٧- إرجاع البصر وانقلابه خاسئا حسيرا:

ورد ذلـــك في قوله تعالى : (الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير)[2]

يقصد بإرجاع البصر: معاودة النظر بمزيد من التدقيق والتحديق فِعْلَ من يريد التأكد من شيء ما.

ومعنى الآيتين: أن الله خلق السموات السبع بما فيها من أفلاك ونجوم وكواكب في غايـــة الإتقان والدقة والتناسب ومعنى التفاوت : الاختلاف والاضطراب والتناقض في الخلقة ولذلك فإن الله يأمر من يريد استشعار عظمة الله في الخلق أن يرجع البصر المرة بعد المرة كي يتأمل فيها (ويعاين ما أخبر به تعالى من تناسبها واستقامتها واستجماعها مـــا ينبغي لها) [3]ثم يأمره ثانية بأن يرجع البصر كرتين[4] إذا لم يقنع بالرجعة الأولى كي يعاود ويعاود متصفحا ومتتبعا يتلمس عيبا وخللا فإنه إن فعل ذلك لم يرجع عليه بصره بما الْتَمَسَهُ من رؤية الخلل وإدراك العيب ، بل سينقلب عليه بصره بالخسوء والحسور، أي: بالـــبعد عن إصابة المُلْتَمَس كأنه يطرد عن ذلك طـــرد الصغار والقماءة وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والترديد[5]

وفي الآيـــتين من اللمحات البلاغية ما يحتاج إلى كشف النقاب حيث يظهر جمال الـــنظم القرآني فإن في قوله تعالى : (ينقلب إليك البصر) وضع للظاهر موضع المضمر وذلـــك للتنبـــية على أن الذي يرجع خاسئا حسيرا غير مدرك الفطور : هو الآلة التي

---

(١) السابق: ٥/ ٥٢١

(٢) الملك : ٣ - ٤ ومعنى (خاسئا) : ذليلا صاغرا - ومعنى (حسير) : كليل من حَسَرَ بعيرُه حُسورًا أي : كلّ وانقطع فهو حسير

(٣) تفسير البيضاوي ٥١٨/٤ ، دار إحياء التراث العربي - ديار بكر - تركيا

(٤) كرتين هنا لا يقصد بها التثنية بل التكرير والتكثير

(٥) راجع الكشاف : ٤/ ٥٧٦

يلـــتمس بها إدراك ما هو كائن فإذا لم يدرك شيئا دل على أنه لاشيء ومثل ذلك نجده في قوله تعالى . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) فأصله: ما ترى في خلقهن من تفـــاوت. ولكنه ذكرهن منسوبات لخلق الرحمن تنبيها على السبب الذي رَبَأَ بِهِنَّ على الفطور والتفاوت[1]

إن حـــركة إرجاع البصر ومعاودة النظر الكرة تلو الكرة تجسم لنا صورة للباحث عـــن شيء ما وهو مشدود البصر يفتش عن الخفايا والتعبير بـــ (ينقلب) وإتباعه ذلك بوصفه البصر بالخسوء والحسرة يدل على التسليم والإقرار بأنه ما في خلق الرحمن من تفاوت.

١٨- ارتداد الطرف:

الطَّـــرفُ : بفتح الطاء وسكون الراء : العين ولا يُجمع لأنه في الأصل مصدر، وطرَفَ بصرَهُ من باب ضَرَبَ : إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر. فارتداد الطرف معناه إذن : إطباق الجفن على الآخر ثم فتحه، وهذا الأمر يتم بسرعة. ولذلك يقال : أسرع من طرفة عين.

وقـــد ورد التعبير بارتداد الطرف في القرآن في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ حين أتى الرجل الصالح بعرشها بين يديه في سرعة فائقة قال تعالى (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك .)[النمل : ٤٠] وقد ذكر الزمخشري أن هذا مثل لاستقصار مدة المجيء، كما تقول لصاحبك: افعل كذا في لحظة وفي ردة طرف والْتَفتْ تَرَنِي وما أشبه ذلك تريد السرعة[2]

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الكفار في يوم القيامة تظل أعينهم مفتوحة لا تطرف ولا يـــرتد إلـــيها طرفها في قوله تعالى(مهطعين مقنعين رءوســـهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدهم هواء)[3] وذلك في تصوير أهوال يوم القيامة ومدى خوفهم منها.

وبهذا نكون قد أتينا على أحوال العين وكل ما يتصل بها وما تشير إليه في حركاتها وســـكناتها وبيـــنا المغزى البلاغي لكل هيئة وأثر تلك البلاغة الراقية في نفوس المتلقين ونسأل الله أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم.

---

(١) السابق ٥٧٦/٤ (حاشية الاسكندري)

(٢) الكشاف : ٣٨٦/٣

(٣) إبراهيم : ٤٣ وانظر (شخوص البصر) في هذا البحث

مراجع البحث

أولا : القرآن الكريم

ثانيا :

(١) أسباب النزول للسيوطي . هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم . إعداد: محمد الحمصي . ط : دار الرشيد . دمشق

(٢) أسرار البلاغة الجرجاني (عبد القاهر) تحقيق ـ : محمد عبد المنعم خفاجى ط ٣ ـ مكتبة القاهرة ، مصر ١٩٧٥

(٣) أساس البلاغة : الزمخشري (جار الله محمود بن عمر) ت ـ عبدالرحيم محمود ، بشاور ، باكستان

(٤) الإشارات الجسمية : دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل د. كريم زكي حسام الدين ط : الانجلو المصرية ـ مصر ١٩٩١م

(٥) الإمتاع والمؤانسة : التوحيدي (أبو حيان) ت . أحمد أمين وأحمد الزيني ط ٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٣م

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، القاضي البيضاوي ـ هامش على حاشية محيي الدين شيخ زاده ـ المكتبة الإسلامية ـ ديار بكر ـ تركيا

(٧) البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف) ط . دارالفكر ، بيروت

(٨) البيان والتبيين : الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) ت ، فوزي العطوي ، الخانجي / مصر / ١٩٦٩م

(٩) دراسات في علم اللغة : د . فاطمة محجوب . دار النهضة العربية ، مصر ، ١٩٧٦

(١٠) شرح ديوان جرير : إيليا حاوى ط ١ ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٨٢

(١١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ تحقيق محيي الدين عبدالحميد ، مصر (بدون تاريخ)

(١٢) ديوان عنترة ـ تحقيق : كرم البستاني ـ دار صادر ـ بيروت بدون تاريخ

(١٣) الزهرة ـ الأصفهاني (أبو بكر محمد بن داود) ت ـ إبراهيم السامرائي ط / عمان ١٩٧٥

(١٤) السياسة في علم الفراسة ، الأنصاري (أبو طالب شمس الدين بن محمد) ط ، القاهرة ١٩١٤م

(١٥) الشوقيات ـ أحمد شوقي ، دار اليوسف ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م

(١٦) طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ابن حزم (أبو محمد علي بن محمد) ـ حسين كامل الصيرفي / المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .

(١٧) العقد الفريد ، ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد) ت . أحمد أمين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٥٢

(١٨) فروق اللغات في التمييز بين مفاد الكلمات ـ نور الدين بن نعمة الله الحسيني الموسوي تحقيق وشرح : محمد رضوان الداية ـ مكتب نشر الثقافة الإسلامية ـ طهران ١٣٩٧هـ

(١٩) فقه اللغة وسر العربية ـ (الثعالبي) : أبو منصور ـ عبدالملك بن محمد بن إسماعيل ـ مصطفى السقا ـ الحلبي ـ مصر ١٩٧٢م

(٢٠) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دارالشروق ـ مصر ، ١٩٨٥م

(٢١) القاموس المحيط ـ الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان

(٢٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل الزمخشري ـ دارالكتاب العربي ـ بيروت .

(٢٣) لغة الجسد ـ (آلن بيز) تعريب، سمير شيخاني ـ دار الآفاق ـ بيروت ١٩٧٧م

(٢٤) المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني ـ ت محمد سيد كيلاني

(٢٥) الانتصاف ـ الإمام أحمد بن المنير الاسكندري ـ حاشية على الكشاف .

بلاغة التعبير بالوجه في القرآن الكريم

تقديم :

وجه الإنسان هو أشرف جزء فيه، وهو ما يواجه به الآخرين فيتعرفون من خلاله عليه، ويميزون به بين شخص وآخر مهما تشابهت الملامح، وعلى الوجه ترتسم أمارات الفرح والحزن والرضا والغضب، والقلق السكينة، والخجل والتبجح . . . . الخ .

وبالجملة فهو المرآة تنعكس عليها كل الأحوال النفسية الباطنية وقد أشار الرازي (ت ٦٠٦)إلى شيء من ذلك في كتاب الفراسة منبهاً إلى أن دلالة الوجه على الأحوال النفسية أتم من دلالة سائر الأعضاء عليها "فإن للخجالة لوناً مخصوصاً في الوجه وللخوف لوناً آخر وللغضب لوناً ثالثاً وللفرح لونا رابعاً، وهذه الألوان متى حصلت في الوجه فإنها تقوي دلالتها على الأخلاق والأحوال النفسانية . [(١)]

ويشترك أبو حيان التوحيدي مع ما سبق في أن التغيرات التي تلحق الوجه تفضح المشاعر الداخلية، وإذا استطاع الشخص أن يخفي مشاعره بتنميق الكلمات أو بالتظاهر بالثبات، فإن وجهه لن يساعده على ذلك، يقول التوحيدي : "قل من يحاول أمرا جليلاً إلا كان القلق يبدو من حركاته إلى أن يمضيه، وقل من يخفي في وجهه صفرة الفرق وحمرة الخجل وإشراق السرور وكمد الحزن وسكون البراءة واضطراب الريبة "[(٢)]

ويشتمل الوجه على أعضاء مهمة تتأثر بالمشاعر النفسية : فالجبهة والعينان والحاجبان والخد والشفتان والفم كلها أعضاء تقوم بدور مهم في التعبير "فإن تقطيب الجبين بحيث ترتسم عليه تجاعيد رأسية قد يعني الاستغراق في التفكير أو المباغتة، بينما لو ارتسمت عليه تجاعيد أفقية فإن هذا يعني الغضب أو التهديد، وفتح العينين واتساعهما يفيد الدهشة أو الفضول، والغمز بالعين قد يعني التآمر أو الشك أو المكر، ويتوقف هذا على حركة الشفتين[(٣)]

---

١) انظر (كتاب الفراسة) للرازي : أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر ص : ١٤٩ تحقيق د/ يوسف مراد ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر ـ ١٩٨٢م

(٢) انظر البصائر والذخائر- أبو حيان التوحيدي : علي بن محمد بن العباس ٢/ ١٢٣ ، تحقيق : أحمد أمين ط : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٣م

(٣) الأصوات والإشارات ـ كندرانوف : ص : ١٨ ـ ترجمة إدور يوحنا، العراق .

ونضيف إلى هذا ما يلحظ من تصعير الخد كبرا، وانفراج الشفتين ضحكاً أو بكاء، والعض على الشفتين ندماً وقلقاً، وارتفاع الأنف شموخاً وعزاً وانكساره ذلاً ورغماً.

وقد أبرز شعراء العربية دور الوجه في التعبر، فوجه سيف الدولة وضاح وثغره باسم في قول المتنبي:

تمر بك الأبطال كلمي هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم[1]

والوجه يرد على المحبوب سلامه وتحيته في قول الشاعر:

سلام وإن كان السلام تحية فوجهك دون الرد يكفى المسلِّما[2]

وعلامات الحب والهوى تظهر في وجوه المحبين في قول الآخر:

الحب يُعرف في وجوه ذوي الهوى باللحظ قبل تصافُح الأجفان[3]

وتتهلل أسارير الوجه وتضيء بالرضى والكرم في قول الشاعر:

فإذا نظرتَ إلى أسرَّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل[4]

والوجه القسيم هو الوجهَ الجَميلَ الَحسن في قول الشاعر:

فيوماً توافينا بوجه مُقَسَّم كأنْ ظبية ترنو إلى وارق السلْم[5]

ولأبي حيان تعليل لطيفً للتعبيرٍ بالوجه يقترب فيه من التعليل العلمي الحديث، فهو يوضح تأثير مثل تلك الانفعالات النفسية الباطنية على وجه الإنسان قائلا:

" إذا قوي الفرح انبسط روح القلب من داخله ووصل إلى الأطراف ولاسيما إلى الوجه لمابين القلب والدماغ من التعلق الشديد فترى الوجه مشرقا متلألئاً، وإذا قوي الغم انحصر الروح إلى باطن القلب ولم يبق له أثرقوي في ظاهر الوجه ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية[6]

---

(١) شرح ديوان المتنبي ٤/ ١٠٢ ـ البرقوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(٢) انظر: التشبيهات: ابن أبي العون: أبو إسحق إبراهيم بن محمد ص: ٣٥٠، تحقيق د/ محمد عبد المعين ط كمبردج ١٩٥٠م وانظر كذلك: الإشارات الجسمية ص ١٦٤.

(٣) انظر: الظرف والظرفاء: الوشاء، أبو الطيب محمد بن إسحق ص: ٢٢٣ ط عامل الكتب بيروت ١٣٢٤هـ

(٤) لسان العرب مادة (سرر) ومادة (قسم)

(٥) المرجع السابق

(٦) البحر المحيط ٥/ ٥٠٤

وقد يعبر بالوجه عن الذات وليس على الجزء المعروف كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .... ﴿٩﴾﴾ سورة يوسف

وقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴿١١٢﴾﴾سورة البقرة

والتعبير بالوجه عن جميع الذات يكون على سبيل المجاز المرسل: لأن الوجه أشرف الأعضاء، ويقال: وجوه القوم أي أشرافهم والعرب تستخدم الوجه للدلالة على الذات وقد أورد الزمخشري في ذلك ما يقوله مساكين مكة (أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان[1]

وقد وردت مادة (وجه) في القرآن الكريم في حوالي خمسة وسبعين موضعاً للدلالة على (الوجه) باسمه من مثل قوله تعالى: (. . . فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ.) سورة المائدة: الآية: ٦ وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .... ﴿١٠٥﴾﴾ سورة يونس

أو (بالفعل) في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ .... ﴿٢٢﴾﴾ سورة القصص أو (بالمعنى) في مثل قوله تعالى: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ) فإن (تولوا) بمعنى (فعلتم التولية) وهي التوجه.

وبالتأمل في سياق الآيات موضع الوجه يمكننا تقسيمها إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: يشمل الآيات التي فيها حركة الوجه من حيث اتجاهه وأوضاعه سواء أكان الوجه فاعلاً للحركة منفرداً بها مثل قوله تعالى: (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ) سورة البقرة: الآية: ١٤٤

أو كانت الحركة واقعة على الوجه نتيجة التقائه بعضو أو أكثر من أعضاء الجسم من مثل قوله تعالى: (فَصَكَّتْ وَجْهَهَا. .) سورة الذاريات: الآية: ٢٩

أو جاءته الحركة من شيء خارج الجسم مثل قوله تعالى: (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ . .) سورة المؤمنون: الآية: ١٠٤.

---

(١) الكشاف ٤/ ٤٦ ط ١ الحلبي ـ مصر ١٩٧٢م

القسم الثاني: يشمل نظائر الحركات أو (الباراكينات) وهو مصطلح أطلقه (بيردوسل) على ما يشبه الحركات أو يناظرها، ويقصد به بعض التغيرات التي تعتري الوجه في مواقف معينة كتغير لون الوجه من اللون الطبيعي إلى الشحوب والاكفهرار أو من ذلك إلى التورد والاحمرار، وكما يتغير لون الوجه إلى السواد عند الشعور بالكآبة والغم والكرب، وإلى البياض عند الشعور بالفرح والسرور[١]

وشبيه بهذا قوله تعالى: **﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾** سورة الغاشية: الآية: ٨. وقوله تعالى: **﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾** سورة القيامة: الآية: ٢٢ وقوله تعالى: **﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾** سورة آل عمران: الآية: ١٠٦

وسوف نتناول فيما يلي بالتفصيل الآيات التي وردت في كل قسم نستجلي من خلال ذلك بعض الأسرار البلاغية الكامنة وراء التعبير الحركي للوجه KINETICS أو ما يناظر هذا التعبير مما يسمى (الباراكينات). PARAKINETICS

وسوف نلاحظ أن الحركة أو نظيرها قد تتم في الدنيا وقد تتم في الآخرة.

وعلى سبيل المثال: فإن تقلب وجه الرسول صلى الله عليه وسلم في السماء بحثا عن القبلة قد تم في الدنيا ومثله صك السيدة سارة لوجهها عند ما بشرتها الملائكة بالغلام وهي عجوز عقيم، بينما كب الوجوه في النار وتقلبها فيها وسحب أصحابها عليها، والوجوه المسفرة النضرة أو العابسة الكالحة تتم في الآخرة. وعلى الجملة فإن حركة الوجه في الآخرة أكثر من حركتها في الدنيا وذلك لكونها مرتبطة بالآيات المكية التي تحذر من عذاب الآخرة .

---

(١) انظر في ذلك (دراسات في علم اللغة) د/ فاطمة محجوب، ص: ١٩٧

القسم الأول: حركة الوجه Faces Kinetics

تحت هذا العنوان أمكن حصر المواضع الآتية لحركة الوجه فاعلاً للحركة أو واقعة عليه منفرداً بها أو مشتركا مع عضو آخر من أعضاء الجسد أو حتى مع شيء خارج عن الجسد وهذه المواضع هي:

١- تقلب الوجه في السماء وتوليته إلى القبلة:

- يقول الله تعالى: (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ) سورة البقرة: الآية: ١٤٤

ويقول أيضاً(وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ) سورة البقرة: الآية: ١١٥

والآية الأولى نزلت في حادثة تحويل القبلة ومناسبتها وأسبابها معروفة في كتب التفسير وأسباب النزول[١]

ولكننا نقف عند قوله تعالى(قد نرى تقلب وجهك في السماء) بشيء من التأمل.

- فإن تقلب وجهه صلى الله عليه وسلم يميناً ويسارا يظهر ضيقه وتبرمه من توجهه إلى بيت المقدس حيث قبلة اليهود الذين آذوه ومكروا به واتخذوا من توجه الجماعة المسلمة إلى قبلتهم وسيلة لإثارة الفتنة والشك في نفوس المسلمين "فقد كانت الكعبة قبلته وهو بمكة، ثم أمر بالصلاة إلى صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفا لليهود"[٢]

إن رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم الكامنة في نفسه في التوجه إلى الكعبة هي رغبة الإنسان السوي الذي يتعلق بأرض أجداده وميراث آبائه. فإن الكعبة في التراث الروحي الإيماني هي قبلة جديه إبراهيم وإسماعيل وهي للعرب القداسة والعزة والكبرياء فتقلب وجهه في السماء كناية عن تلك الرغبة التي يرى الرسول أن تحقيقها سيحفز العرب إلى الدخول في الإسلام ويوحدهم نحو هدف واحد.

(وقد جاء التعبير القرآني بعد ذلك(**فلنولينك قبلة ترضاها**) "تأكيداً للوعد بالصراحة بعد التمهيد لها بالكناية"[٣]

---

(١) انظر في ذلك: البحر المحيط ١/ ٤٢٧- وأسباب النزول للسيوطي: هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم = إعداد محمد الحمصي: ٤٥ دار الفكر. دمشق.

(٢) البحر المحيط ١/ ٤٢٣.

(٣) التحرير والتنوير. الطاهر بن عاشور ٢/ ٢٧.

ثم جاء الأمر بعد ذلك للأمة الإسلامية كلها (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . .) وذلك لبيان أن الحكم عام له ولأمته ولبيان أن الأمر ليس مقصورا على أهل المدينة فحسب بل يشمل المسلمين في كل مكان .

إن التعبير عن حركة الوجه بالتقلب بصيغة التفعل يوحي بكثرة الحركة ، لأن من رفع رأسه في السماء مرة واحدة لا يقال فيه قلب بصره في السماء وإنما يقال ذلك إذا تكرر هذا الفعل . وهذه الكثرة بدورها تعكس الرغبة الشديدة في التحول عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

وإذا كان الإنسان يستقبل القبلة بكامل جسمه لا بوجهه فحسب ، فإن التعبير بالوجه جاء على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته (الجزئية) ولأنه أشرف الأعضاء أيضاً .

أما تنكير (قبلة) في الآية فلأنها ـ كما يقول أبو حيان :

(لم يذكر قبلها ما يقتضي أن تكون معهودة فتعرف باللام)[1] .

ونرى أن التنكير يفيد ـ إلى جانب ذلك أيضاً ـ التعظيم والتشويق إلى معرفة كنهها .

ثم وصفها بعد ذلك (بترضاها) ليطمئن قلبه . . ثم ترقى وتدرج إلى تعيينها فقال : (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ . .) سورة البقرة : الآية : ١٤٤ .

أما الآية الثانية (. . . وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ . .) فإن حركة الوجه فيها مفهومة من الفعل (تولوا) لأن المفعول به (وجوهكم) محذوف لأن التولية تعني الاتجاه ولا يتحقق ذلك إلا بالوجه أولاً . . . .

وقد يتبادر إلى الذهن أن استفتاح الآية بقوله تعالى :(ولله المشرق والمغرب . . .) يعني أن الاتجاه إلى القبلة المعهودة (المسجد الحرام) ، ليس شرطاً في الصلاة ولكن ذلك غير صحيح ؛ لأن الآية المذكورة وردت في سياق آية قبلها تتحدث عن المشركين الظلمة الذين كانوا يمنعون المسلمين من ذكر الله في المساجد [2] . فبينت الآية أن المشرق والمغرب لله (فأي جهة أديتم فيها العبادة فهي لله وهو يثيب على ذلك . ولا يختص مكان التأدية بالمسجد [3] .

---

(١) البحر المحيط : ١/ ٤٢٨

(٢) الآية السابقة هي قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم)

(٣) البحر المحيط : ١/ ٣٦٠

أو ربما تعني الآية صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت . . ولكن التوجيه الأول أقرب إلى السياق وأولى بالقبول .

٢ - صكّ الوجه :

الصك على الوجه حركة تلتقي فيها اليد مع الوجه، يعبّر بها صاحبها عن دهشته وحزنه واستنكاره لأمر مّا، وغالباً ما يحدث هذا عند ما يتلقى المرء خبراً مفاجئاً غير سار كأنباء الموت وأخبار الكوارث غير المتوقعة، ويبدو هذا التصرف بصورة أكثر عند النساء . وتصاحب هذه الحركة عبارات تنمّ عن الجزع والتعجب، فتزيد الحركة من قوة الأداء اللغوي وتأثيره، وقد أشار ابن جنّي إلى ذلك وهو يعلق على قول شاعر يصف تلك الحركة وقد صدرت من زوجته :

تقول وصكّت وجهها بيمينها   أبَعْليَ هذا بالرحى المتقاعس

يقول ابن جني : (. . . فلو قال حاكياً عنها (أبَعلي هذا بالرحى المتَقاعس) من غير أن يذكر صك الوجه ؛ لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة ؛ لكنه لما حكى الحال فقال (وصكت وجهها) علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، ولولم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله (وصكت وجهها) لم تعرف حقيقة تعاظم الأمر لها[1] والقرآن الكريم يحدثنا عن مثل هذا الموقف، وهو يحكي حال السيدة سارة زوج إبراهيم عليه السلام، حينما بشّره ضيوفه من الملائكة بغلام عليم بعد ما أنكرهم وأوجس منهم خيفة، ولقد كان وقع الخبر على السيدة سارة عظيما وظهر أثر هذا بالفعل وبالقول في سورة الذاريات﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ وكذلك في سورة هود ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ إنها عند ما فوجئت بهذا الخبر أصابتها حالة من الدهشة والاستنكار والتعجب، وقد عبرت عن هذه الحالات بثلاثة أشياء :

(١) الخصائص ـ ابن جني ١/ ٢٤٥ـ٢٤٦ تحقيق محمد علي النجار ط ـ بيروت. وانظر كذلك الإشارات الجسمية ٣٧=٣٨ .

١ . بالصيحة العالية والتأوه الشديد وقد عبر القرآن عن ذلك بالحال شبه الجملة (في صرة) وأصل الصرة الصياح الشديد عند وقوع أمر مستغرب وقد تضمنت الصيحة الدعاء بالويل والهلاك ﴿يَـٰوَيۡلَتَىٰ﴾ فكأنها تستدعى الهلاك والموت لنفسها قائلة : (أقبل أيها الموت فهذا أوانك) وذلك خوفاً من افتضاح أمرها .

٢ . بلطم خديها بكفيها بشدة على عادة النساء في مثل هذه المواقف المفجعة وقد عبر القرآن عن ذلك بـ (صكّت وجهها) ومادة (صك) توحى بالضرب الشديد وصوت الاصطكاك يوحي بذلك .

٣ . بالقول وقد عبر القرآن عنه في صورتين :

الأولى : (**عجوز عقيم**) في سورة الذاريات وقد حذف فيها المسند (أنا) للاستعجال وضيق المقام .

والثانية : (. . . قَالَتۡ يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَـٰذَا بَعۡلِى شَيۡخًاۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىۡءٌ عَجِيبٞ) في سورة هود . وفيها استفهام إنكاري وتعجب من تلك البشارة إذ كيف تلد وهي عجوز وزوجها شيخ؟!

وقد أشار أبو حيان إلى أن صك الوجه (فعل من يرد عليه أمر يستهوله ويتعجب منه وهو فعل النساء إذا تعجبن من شيء)[١]

كما يشير في موضع آخر إلى أن الدعاء بالويل في (يَـٰوَيۡلَتَىٰ) ونحوه (يرد في التفجع لشدة مكروه يدهم النفس، ثم استعمل بعد ذلك في عجب يدهم النفس، وكلمة (يَـٰوَيۡلَتَىٰ) كلمة تخف على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه ، وقد كان مصدر عجب (سارة) هنا من حدوث ولد بين شيخين) . [٢]

وتجسد الحركة المصحوبة هنا بصيحة الاستنكار وبالخبر القولي بلاغة القرآن الكريم بالتصوير الحي الذي ينقلك إلى المشهد القديم قدم التاريخ أو ينقل المشهد إليك في الوقت الحاضر ـ وفي كلتا الحالتين فإن الغرض البلاغي والغرض الديني يتعانقان كي يؤديا دورهما في التأثير في نفس المتلقين للقرآن في كل زمان ومكان .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق : ٥ـ٢٤٤ .

٣- الانقلاب على الوجه :

وردت حركة الانقلاب على الوجه في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الحج

إن حركة الانقلاب على الوجه هنا تصور حالة نفر من الناس دخلوا الإسلام دخولا غير مطمئن ولا واثق، إنه إسلام المنفعة الذي يقيس العقيدة بمقياس الربح والخسارة في الدنيا ومن ثم فهو لا يصمد أمام التحديات . . وقد صورهم القرآن بأنهم (على حرف) أي على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه وهذا كما يقول الزمخشري (مثل على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه)[1]

وبضم صورة من يعبدون الله على حرف كأنهم وقوف على حافة هاوية تهتز أجسامهم لأقل ريح وتتعثر أقدامهم لأقل عثرة. . بضم هذه الصورة إلى صورة من ينقلب على وجهه يتجسم مشهد هؤلاء أمامنا وقد انقلبوا على وجوههم لأنهم لم يقفوا على أرض مطمئنة فالتعبير بالانقلاب على الوجه هنا كناية عن الارتداد عن الدين والعودة إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال . . والبلاغة هنا في تدرج الصورة وترقيها، لأن الوقوف على الحرف تمهيد للسقوط والانقلاب على الوجه .

٤- الانكباب على الوجه

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الملك

وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق خطاب الكفار والمعاندين عن طريق توجيه العديد من الأسئلة التبصيرية التحذيرية التي تقرع الأفئدة الغلف بمطارقها الحادة كي تفيق من غفلتها وتتنبه إلى مقدار الخطأ والخطل في عقيدتها .

وهي أسئلة تحذر من الخسف والحصب والنذير والنكير والغرور والعتو والنفور .

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٤٧ .

(راجع الآيات ١٦ـ٢٢) وبعد ذلك تأتي الآية موضع الشاهد لتضع أمامهم سؤالاً يعرف إجابته كل من يسمعه، لأن السؤال يتضمن مقابلة بين نقيضين أحدهما خير مطلق والآخر شر مطلق وهي المقابلة بين مثل من يمشي مكباً على وجهه ومن يمشي سويا على صراط مستقيم وأيهما أهدى سبيلاً.

والآية الكريمة تشبه حال الكافر في اضطرابه وتعسفه في عقيدته وتشابه الأمر عليه بمن يمشي في طريق مليء بالعثرات فيها ارتفاع وانخفاض فهو لا يكاد يمضي حتى يخر على وجهه منكباً، وتشبه حال المؤمن وقد اطمأن قلبه بالإيمان وأضاءت له عقيدته طريقه فوضحت معالم الهداية أمامه بمن يمشي معتدل القامة في طريق معلومة البداية والنهاية (صراط مستقيم) ووصف الصراط بالاستقامة تأكيد على أن المستقيم هو أقرب خط بين نقطتين فلا تعرجات ولا انحناءات ولا عثرات.. فالمؤمن بالمقارنة بمن سبقه لا شك أهدى وأقوم.

(ويجوز أن يراد بالمكب على وجهه: الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف فلا يزال ينكب على وجهه وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق السوي المهتدي له، وهذا من قبيل الاستعارة التمثيلية التي شبهت فيها حالة بحالة وقد حذفت الحالة المشبهة واستعيرت لها الحالة المشبه بها[١]

إن الوجه ـ بما فيه من معاني العزة والشرف ـ إذا انكب إلى الأرض رغم صاحبه وذل وإذا التصق بالأرض فلن يرى غير ترابها ولن يستطيع الاهتداء إلى الصواب فهل هناك ضلال أبعد من ذلك؟ ومن ثم كان الاستفهام في الآية كما يقول أبو حيان: (لا تراد حقيقته بل المراد منه أن كل سامع يجيب بأن الماشي على صراط مستقيم أهدى)[٢]

وتتضمن الآية بعض الملامح الفنية البلاغية التي تساعد في رسم الصورة الوضيئة المشرقة أمام المسلمين كي يثبتوا على إيمانهم، وتجسم النهاية المفجعة للكافرين فلا يكون لهم عذر حين يرون الحق واضحاً ويعرضون عنه، ومن هذه الملامح:ـ

ـ التعبير باسم الفاعل (مكبا) يوحي بأنه اختار بنفسه هذا الطريق الوعر وبأنه لما انكب ـ بنفسه ـ على المعاصي يعاقرها ويعب منها قاده ذلك للانكباب على وجهه في نار

---

(١) البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية د/ عبدالله هنداوي ص: ٨٩.

(٢) البحر المحيط: ٨/ ٣٠٣.

الآخرة وكان جزاؤه من جنس عمله كما جاء في سورة أخرى ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ.... ﴿٩٠﴾﴾ سورة النمل

- التعبير بصيغة فعيل (سويا) بدلا من اسم الفاعل (مستويا) رغم مناسبة اسم الفاعل هنا لاسم الفاعل السابق (مكبا) وذلك لأن (مستويا) ربما توحي فقط باستواء الخلقة بينما (سويا) توحي في الأعم الأغلب بالاستواء الحسي والمعنوي أي باستواء الخلقة والخلق وهو مطلوب من المسلم.

- التعبير ب (صراط) مفردا بدل الجمع للإيحاء بأن الذين يسلكون هذا الصراط الواحد يتميزون بعقيدة الإفراد والتوحيد لله سبحانه وتعالى وبأن الصراط الواحد لا يكون إلا للمعبود الواحد والقرآن الكريم يحذر في آية أخري من اتباع السبل المتفرقة الكثيرة ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ.... ﴿١٥٣﴾﴾ سورة الأنعام ويدعونا إلى ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ سورة الشورى.

٥- الوجوه المطموسة المردودة على أدبارها:

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ سورة النساء.

- وسياق الآية هو الحديث عن اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه في الآية السابقة ومن ثم ياتي التهديد بطمس الوجوه وردها على الأدبار، ومادة الطمس تعني المحو والإزالة (يقال طمست الشيء طمساً: محوته، وطمسته: استأصلت أثره ومنه(وإذا النجوم طمست)[1] وهو تهديد مناسب لفعلتهم القبيحة فتبديل وجوههم وطمسها وتشويهها جزاء لمن بدل كلام الله وحرفه وأزاله عن موضعه أو فسره تفسيراً مخالفا لمقصوده.. وكلام الله أشرف الكلم يتميز عن سائر الكلام بأنه القول الفصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ووجه الإنسان أشرف جزء فيه يتميز عن بقية الأعضاء بما فيه من محاسن وما ركب فيه من عينين وحاجبين وشعر وأذنين

---

(١) القاموس المحيط: (طمس)

وأنف وفم (فإذا أزيلت عنه تلك المحاسن ومحيت منه تلك الأجزاء فصار كخف البعير وحافر الفرس، أو رد إلى الأدبار

فجعل على هيئة القفا كان ذلك تشويها فظيعا للخلقة الحسنة ومثلة وفضيحة عظيمة توجب الغم والحسرة الشديدة)[1]

وقد شرح شيخ زاده ما قاله الزمخشري عن الفاء في قوله تعالى: **(فنردها على أدبارها)** من أنها قد تكون للسببية وقد تكون للتعقيب . . وبين أن لها على كلا الرأيين تفسيراً يؤكد التهديد ويقويه لأنها إذا كانت للسببية فالمعنى: أردنا طمسها فرددناها إلى الأدبار؛ أي جعلنا الوجوه ناحية القفا، والقفا ناحية القدام.

- أما إذا كانت للتعقيب فالمعنى أنها تفيد حدوث العذاب مرتين: طمست الوجوه أولاً ثم أعقب ذلك بردها إلى الأدبار، ويكون ذلك على سبيل التفصيل بعد الإجمال، فإن رد الوجوه على هيئة الأدبار تفصيل للطمس المجمل كما في قوله تعالى **(وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً . .)** فإن تبييت البأس تفصيل للإهلاك المجمل.[2]

وطمس الوجوه وردها إلى أدبارها قد يكون على الحقيقة وما ذلك على الله بعزيز، فقد أصاب الله أسلافهم قبل ذلك بالمسخ قردة وخنازير، فليس طمس الوجوه بأصعب من ذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ... ﴿٦٠﴾﴾ سورة المائدة. وقال ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ سورة الأعراف.

- وقد يكون الطمس معنوياً وهذا يحتمل أمرين:

الأول: الإشارة إلى أنهم سلبوا - لغوايتهم وعنادهم - ميزة ما في الوجوه من آلات الحس والإدراك كالسمع والبصر والعقل، طمسس الله عليها، فأعمى الأبصار عن الاعتبار، وأصم الأسماع عن الإصغاء إلى الحق وردها من الهداية إلى الضلال. فهم كما حكي القرآن عنهم: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ سورة البقرة وهم أيضاً ﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ

(١) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٢/ ٤٠ ط المكتبة الإسلامية ديار بكر - تركيا.

(٢) السابق: ٢/ ٤٠.

بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾» سورة الأعراف.

الثاني: أن يراد بالوجوه رؤساء اليهود، فالطمس هنا بمعنى تغيير وجوههم بسلب وجاهتها وإقبالها وتجليلها بالصغار والإدبار حين أجلى بنو النضير وبنو قريظة وردوا إلى أدبارهم من حيث جاءوا من أذرعات وأريحا بالشام[1]

وهكذا فإن أسلوب القرآن الكريم تتفجر منه طاقات الإيحاء ثرة غزيرة ويستمر كنزه المعطاء مفتوحا لكل من فتح الله عليه.

٦- حركة الوجه في النار:

في هذا المبحث نتتبع تأثير النار على وجوه الكافرين، وكيف تعبر الوجوه عن حالة أصحابها عندما تلتقي مع النار، كيف تفصح عن مشاعرهم وتبين مصيرهم والموقف الذي أدى بهم إلى هذا المصير.

إن النار في الآخرة تلفح الوجوه وتغشاها، وتكب فيها الوجوه وتكبكب ويتقى بالوجوه سوء العذاب وتقلب في النار، ويسحب أصحابها في النار على الوجوه.

أ- ففي قوله تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ سورة المؤمنون.

تأتي الآية في سياق المقابلة بين المؤمنين- وقد ثقلت موازينهم يوم القيامة ففازوا بالفلاح ـ وبين الكافرين وقد خفت موازينهم فخسروا أنفسهم وخلدوا في جهنم تلفحهم بلهيبها، سفعت النار وجوههم وأحرقتهم فتركتهم كالحين (والكلوح أن تتقلص الشفتان وتتشمرا عن الأسنان كما ترى الرؤوس المشوية)[2]

وقد خص الوجه باللفح ـ كما يقول أبو حيان في النهر الماد وفي البحر المحيط، لأنه أشرف ما في الإنسان، والإنسان أحفظ له من الآفات من غيره من الأعضاء فإذا لفح الأشرف فما دونه ملفوح، ولما ذكر إصابة النار للوجه ذكر الكلوح المختص ببعض أعضاء الوجه[3]

---

(١) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي ٢/ ٤٠ ط المكتبة الإسلامية . ديار بكر ـ تركيا (بتصرف)

(٢) الكشاف: ٣/ ٢٠٤.

(٣) البحر المحيط: ٦/ ٤٢٢ وكذلك النهو الماد ٦/ ٤٢٢.

إن صورة الوجه الكالح وقد احترق بهذه الطريقة البشعة صورة كريهة منفرة لكل من يراها، أو يسمع عنها . . وإن حركة عضلات الوجه وهي تتقلص وجلده وهو يتشمر وشفتيه وهما ترتفعان إلى أعلى أو تنخفضان إلى أسفل . . هذه الحركة تعطى صورة تنخلع لها القلوب رهبة وخوفاً . . ومن ثم يعاجل القرآن هؤلاء الكفار ـ بعد ذلك ـ بالسؤال التقريعي التوبيخي (**ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون؟**)

ولن ينفعهم بعد ذلك اعتذارهم بأنهم قد غلبتهم شقوتهم فضلوا عن طريق الهداية، ولن تجدي توسلاتهم إلى رب العزة بأن يخرجهم من النار إلى الدنيا من جديد. فلطالما حُذِّرُوا في الدنيا من هذا المصير فكانوا يسخرون ويضحكون . . (راجع الآيات ١٠٥ـ ١١١ من سورة المؤمنون)

ب ـ وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ سورة إبراهيم

نرى المجرمين هنا مسوقين إلى جهنم قد قرن بعضهم إلى بعض مغللين في قيود مصفدة متسربلين بالقطران[1] الذي يساعد على اشتعال النار التي تتصاعد من أجسامهم إلى وجوههم حتى تغشاها وتغطيها.

وسواء أقرئت (وجوههم) بالرفع أو بالنصب فوردت الوجوه على النار من جميع جوانبها أو وردت النار عليها وأحاطت بها، فإنها في كلتا الحالتين مصطلية بالنار ﴿ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ سورة إبراهيم

إن صورة الكافر المقيد في الأصفاد المسربل بالقطران وقد اشتعلت النار في جسده حتى غطت وجهه جديرة بأن تكون بلاغاً وإنذاراً للناس ولكن لا يتذكر ذلك إلا أرباب العقول ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ سورة إبراهيم

والغرض البلاغي هنا هو الترهيب والتخويف، والتعبير بالمضارع في(وتغشى) لاستحضار الصورة.

---

(١) مما ذكره الزمخشري عن القطران: أنه يتحلب من شجر يسمى الأبهل يطبخ فتهنأ به الإبل الجربى، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلي به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص لتجتمع عليه الأربع " ١ـ لذع القطران وحرقته ٢ـ إسراع النار في جلودهم ٣ـ واللون الوحش ٤ـ ونتن الريح (انظر: الكشاف): ٢/ ٥٦٧

ج- وهذه صورة أخرى لحركة الوجه مع النار تتجسد في هذا السؤال التهكمي الساخر في قوله تعالى ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ سورة الزمر

فالوجه وهو أعز موضع من ظاهر البدن وأشرفه ـ [١] يقيه الإنسان ـ عادة ـ بكلتا يديه كي يحميه من أذى الحر والبرد والمطر والحجر وعدوان المعتدي، وإنها لحركة لا إرادية من جميع البشر أن يرفعوا أيديهم أمام وجوههم عند إحساسهم بأي خطر يتهددهم، هذا الوجه اليوم في الموقف المقلوب إنه مطالب بأن يكون هو الدرع وهو الوقاية من سوء العذاب، لأن صاحبه قد ألقي في النار مغلول اليدين مسلسل القدمين مقمح الرأس لا يستطيع الالتفات، إن الوجه ـ الآن ـ في مواجهة مباشرة مع النار لا يستطيع عضو آخر من أعضاء جسده حمايته أو وقايته، وتكون المفارقة الساخرة هنا أن هذا الوجه العزيز على صاحبه الذي تعود الدفاع عنه بيديه، لا يجد صاحبه ما يحول به بينه وبين النار، فيتقى شدة العذاب بهذا

الوجه، فأنى تتحقق له هذه الوقاية، وقد عبر الزمخشري عن ذلك بقوله: (إن الإنسان إذا لقى مخوفا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقي بها وجهه، لأنه أعز الأعضاء عليه والذي يلقى في النار يلقي مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه)[٢]

وقد اجتهد المفسرون في بلاغة التعبير بقوله تعالى(أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب) وأدلوا بتوجيهات بلاغية تدل على أن بلاغة القرآن رحيبة المجال ومعطاءة لكل متأمل على قدر فهمه وتأمله.

فهذا الإسكندري صاحب الانتصاف يرى أن الأمر على سبيل المجاز التمثيلي[٣] شبه حال من يلقي في النار ولا يجد ما يتقي به النار غير وجهه بحال من يتقيها بداية بوجهه وعبر عن ذلك بالاتقاء.

ـأما شيخ زاده فيرى أن في التعبير كناية وفيه أيضاً استعارة تخييلية[٤] ففي التعبير كناية عن استحالة الاتقاء لأنه غير متصور أصلاً لأنه لا يمكن للوجه أن يتقي النار وهو مصطل بها. . وهذا كالكناية عن عدم وجود العيب ـ مع إيهامه ـ في قول النابغة: ـ

---

(١) البحر المحيط: ٥/ ٤٤١.

(٢) الكشاف: ٤/ ١٢٥.

(٣) الانتصاف ـ للإمام أحمد بن المنير الإسكندري = هامش على الكشاف: ٤/ ١٢٥.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فإن ما في السيوف من فلول ليس عيباً بالمرة بل هو دليل البأس والقوة.

وأما الاستعارة التخييلية وهي المكنية أيضاً، فقد شبه الوجه بالترس الذي يتقي به وحذف المشبه به ودل عليه بالفعل (يتقي) على سبيل الاستعارة المكنية.

ـ لكن أبا حيان يحمل التعبير على الحقيقة[1]. وأنه بالفعل لم يجد حيلة يتقي بها النار غير وجهه حين ألقى في النار مغلولاً. ويري أن حمل التعبير على الحقيقة أبلغ لبيان كثرة ما يناله من العذاب وأن في هذا تدرجا في التوقي لأن الإنسان يتقي أولاً بجوارحه ويترقى في الوقاية إلى أن يجعل أشرف جوارحه وهو الوجه وسيلة التوقي.

ـ وأبو حيان يعضد رأيه هذا باستحسان ابن عطية له وبقول الشاعر:

يَلْقَى السيوفَ بوجهه وبنَحْره ويقيمُ هامته مقام المِغْفَر

د ـ ومما يتصل بحركة الوجه في النارَ (تقَلّب الوجوه في النار) وذلَك في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾ سورة الأحزاب

وهو تعبير يحمل في الغالب على ظاهره، ولا يلعب الخيال دوراً بارزاً فيه غير أنه في تصوير الواقع يفوق كل خيال، فهذه الوجوه الشريفة يقلبها سعير جهنم بشدة في اتجاهات مختلفة (كما ترى البضعة تدور في القدر إذا غلت فيترامى بها الغليان من جهة إلى جهة)[2]

والتعبير بالوجه مجاز عن تقليب الجسد كله ولكنه خص بالذكر تشفيا وسخرية منهم واستهزاء بهم لأنه الأشرف والأحسن ومحل الصباحة والوجاهة عند الإنسان.

وقد ساعدت الصياغة اللغوية على تهويل الصورة وتبشيعها لأن المضارع المضعف العين (تُقَلَّبُ) المبني للمفعول يوحي أولاً بشدة التقليب وثانياً بسلب إرادتهم فهم متقلبون بفعل السعير أو بزبانية جهنم، وهم لن تنفعهم صرخاتهم ولا ينفعهم ندمهم

---

(٤) حاشية محيي الدين شيخ زاده ٤/ ٢٠١ والاستعارة التخييلية هي إثبات لازم المشبه به للمشبه وهي قرينة الاستعارة المكنية، فقرينة المكنية دائما: استعارة تخييلية على مايرى الجمهور. فهما متلازمتان لا توجد إحداهما بدون الأخرى إذ لابد للاستعارة من قرينة، (انظر: أسرار البيان. د. علي العماري، مصر ١٩٩٢م)

(١) البحر المحيط: ٧/ ٤٢٤

(٢) الكشاف: ٣/ ٥٦٢.

على عصيانهم قائلين (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) ولن يجدي إلقاؤهم المسؤولية على سادتهم وكبرائهم وهم يتوسلون ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ سورة الأحزاب

هـ ـ ثم نأتي إلى صورة أبشع وأشنع لحركة الوجه مع النار، وهي صورة السحب على الوجوه في النار لكل من أجرم في حق نفسه أو غيره، فضل عن الحق في الدنيا وسعر في نيران جهنم في الآخرة ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ سورة القمر.

ولقد رأينا في الدنيا صوراً من المسحولين في الشوارع والمسحوبين على وجوههم على أيدي خصومهم في السياسة أو العقيدة وقد اختلطت بالتراب وجوههم وتعثرت في حصى الأرض وأحجارها فشوهت سحناتها وكساها الدم فمحا معالمها، فكيف بمثل هذه الوجوه وقد سحبت على حصب جهنم وتلطخت بما انصهر فيها من أجساد وما سال فيها من قيح وصديد.

ولكن المثير للتهكم والسخرية بعد كل هذا أن يقال لهم (ذوقوا مس سقر) كأن كل هذا السحب والسحل والعذاب مجرد (مس) مما يصيب الناس في دنياهم كمس الحمى والألم.. وكأن هذا العذاب مما يذاق بالفم كالطعام على سبيل الاستعارة المكنية.

و ـ ومن الكفار من يكب على وجهه في النار ومنهم من يُكَبْكَبُ فيها وقد ورد ذلك في قوله تعالى ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ.... ﴿٩٠﴾﴾ سورة النمل.

وقوله تعالى: ﴿ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ سورة الشعراء

ففي الآية الأولى مقابلة بينها وبين آية أخرى سابقة لها هي قوله تعالى: (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) وهذه المقابلة توضح المصير المنتظر لفريقين، فريق قدم الحسنة وهي الإيمان فهو آمن من أي فزع، وتنكير (فزع) للعموم والشمول لكل ما يفزع في الآخرة بدءاً من فزع البعث إلى النشور إلى الحشر إلى الحساب..

وفريق آخر جاء بالسيئة وهي الكفر فجزاؤه من جنس عمله لأنه حين انكب هائماً على وجهه في الشرك والمعاصي والملذات. كب في النار على وجهه منكوساً على رأسه.

والتعبير بـ (جاء) في الآيتين يستحضر في دنيا الناس صورة الفريقين يوم القيامة وقد حمل كل فريق معه دليل نجاته أو دليل إهانته، والتعبير بالوجه ـ كما بينا في أكثر من موضع، مجاز مرسل علاقته الجزئية والوجه واجهة الإنسان فإذا كب في النار كان الجسم تبعا له.

وتبين الآية الثانية لنا أن من كانوا يتعبدونهم من دون الله أو يتوسلون بهم لن ينصروهم أو ينجوهم من عذاب جهنم ولن ينتصروا لأنفسهم يوم القيامة(**وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون، من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون**) لأن هذه الآلهة نفسها ستلقى في جهنم مع من عبدها ومعهم كل جنود إبليس . . وقد عبر القرآن عن هذا المشهد بالفعل (كبكبوا) والكبكبة ـ كما يقول البيضاوي ـ تكرير الكب لتكرير معناه، كأن من ألقي في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها)[1]

كما أن التعبير بالماضي المسبوق بفاء الترتيب والتعقيب مع بنائه للمجهول (فَكُبْكِبُوا) يفيد تحقق الوقوع مع سرعته كما يوحي بأن هناك قوة قاهرة تدفعهم كما يندفع القَطيع من الذعر فيتساقط بعضه فوق بعض وقد عبر سيد قطب عن جانب من هذا المشهد المريع بقوله: (وإنك لتسمع من جرس اللفظ صوت دفعهم وسقوطهم بلا عناية وبلا نظام وصوت الدبدبة الناشىء من الكبكبة كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه)[2]

ز- وأخيراً يأتي الوسم بالنار على الأنف في قوله تعالى ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة القلم. لصنف من الناس أمر الله رسوله (والأمر للمؤمنين أيضاً) بألا يطيعه ولا يسير في ركابه، وقبل أن يسمه الله على أنفه بالنار في الآخرة وسمه في الدنيا بمجموعة من الصفات الذميمة التي تفسد المجتمع المسلم فهو كثير الحلف وهذا دليل على كذبه وهو مهين حقير الرأي، يمشي بين الناس بالنميمة، مناع للخير معتد على غيره شديد الظلم غليظ الطبع شرير قال تعالى في وصفه ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة القلم

وصاحب هذه الصفات في الدنيا يسمه الله في الآخرة على أنفه بميسم الذل حيث يكوي بالنار على أظهر شيء في وجهه وعلى رمز الأنفة والجبروت وهو الأنف وفي هذا كناية عن العار الذي يلزمه ولا يفارقه فكل من يرى شخصاً متصفاً بهذه الصفات في دنيا

---

(١) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للقاضي البيضاوي: ٣/ ٤٧٤.

(٢) مشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ١١٤ ط دار المعارف، مصر.

الناس تبرز أمام ناظريه صورة هذا العتل الزنيم وهو راغم الأنف ذليل مشوه الوجه وهي صورة تبعث على الضحك والسخرية بسبب المفارقة المفاجئة بين الصورتين ﴿ ... سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ (التوبة) .

وبمعاودة النظر في بلاغة تلك الصورة الساخرة لهذا الصنف من البشر نرى أن القرآن الكريم يستخدم لذلك جملة قصيرة هي(سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ) ولكن كل جزئية فيها تشي بهذه السخرية اللاذعة وتجسمها وتضخمها . فالسين ـ تدل على قرب وقوع الفعل وفي هذا طمأنة للرسول بأن الله سينتصر له من هذا الباغي عما قريب[1] . كما يدل قرب وقوع الحدث على التهديد والتخويف لهذا الصنف من البشر كي لا يتمادي في الطغيان والاستكبار . والتعبير بضمير الغائب في (سنسمه) للاحتقار .

والتعبير بالوسم بدلا من الكي يستحضر الصورة الدائمة المستمرة للحيوان المكوي ، لأن الوسم ـ كما يقول صاحب القاموس المحيط ـ هو أثر الكي ، فقد يذهب الكي بآلامه المحرقة ، ولكن يبقى الوسم علامة مستمرة على أن هذا قد تعرض للكي يوما ما ، فيستمر إذلاله ما بقي هذا الوسم . إن الكي عقاب بدني ولكن الوسم إذلال نفسي يتناسب تناسباً عكسياً مع ما عرف عن صاحبه من علو واستكبار .

والتعبير بـ (على) بدلا من (في) بما يفيده لفظ على من العلو والتمكن يوحي بأن هذا الوسم سيكون في أعلى الأنف بحيث يراه كل ناظر فيزيد ذلك من فضيحته وإذلاله .

(وفي استعارة الخرطوم مكان الأنف استهانة واستخفاف لأن حقيقة الخرطوم للفيل[2] وقد درج العرب على أن الأنف رمز العزة والسيادة كما يقول حسان في مدح الغساسنة :ـ

بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابُهم   شُمُّ الأنوف من الطراز الأول[3]

واشتقوا منه الأنفة فقالوا في المدح (حَمِيُّ الأنفِ شامخُ العِرْنِين وقالوا في الذليل : (جَدِعَ أنفُه ورَغِمَ أنفه)[4]

فإذا عبر عنه بالخرطوم استدعى ذلك التعبير صورة الفيل الضخم وذلك بدوره يستدعي صورة هذا المغرور المتكبر المنتفخ في الدنيا وبالمقارنة بين الصورتين تبلغ السخرية

---

(١) ذكر أن أنف الوليد أصابته جراحة في بدر فبقي أثرها : انظر تفسير البيضاوي ٤/٥٢٨

(٢) البحر المحيط : ٨/ ٣١١ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ص ١٨٠ طـدار صادر بيروت ـ لبنان .

(٤) البحر المحيط : ٨/ ٣١١ .

منه مداها الذي لا يحد. . . . وتظل صورته الزرية شاخصة كلما تلي القرآن فتفعل فعلها في النفوس . وبذلك تؤدي البلاغة القرآنية هدفها الديني بالإضافة إلى هدفها الجمالي الفني.

٧- غلبة دلالة الوجه على الذات :

رأينا في تحليل الآيات السابقة أن القرآن الكريم قد عبر بالوجه عن الجسم لأنه أشرف الأعضاء كلها وأن الوجه استخدم على سبيل المجاز بعلاقة الجزئية، ونريد أن نؤكد أن هذا المعنى أكثر بروزاً عند ما يتعلق الأمر بحركة الذات الإنسانية بشقيها المادي والمعنوي، وفي الآيات الآتية يرد ذكر الوجه وحركته لا للدلالة على ذلك الجزء المعروف من الجسد بل للدلالة على الذات بأكملها، وقد سبقت في مقدمة هذا البحث رواية الزمخشري في ذلك أن المساكين من أهل مكة يقولون (أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان)[(١)]

ويورد في ذلك قول الله تعالى: (. . ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ.)

والآن إلى المزيد من تلك الآيات لتتبين وجه البلاغة فيها :-

١- يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ... ﴿٧٩﴾﴾سورة الأنعام

إن الوجه هنا ليس مقصوداً بذاته بل المقصود حركة التوجه الكلي بالجسم والروح، بالنية والضمير والجوارح. . وبمعنى أشمل أن تكون كل الحركات والسكنات والأعمال والعبادات مقصوداً بها خالق السموات والأرض. يقول القرطبي في تفسير ذلك (أي قصدت بعبادتي وتوحيدي الله عز وجل وحده وذكر الوجه لأنه أظهر ما يعرف به صاحبه)[(٢)]

ويربط الطاهر بن عاشور - في هذه الآية بين النية والقصد والضمير وما يعتري الوجه من تغيرات فيشير إلى التغيرات التي تلحق الوجه عند توجهه لجهة ما بأن (القاصد إلى مكان ما بوجهه تحصل هيئة في وجهه وهي هيئة العزم وتحديق النظر. . فمعنى وجهت وجهي: صرفته وأدرته، ويرى أن هذا الفعل من إبراهيم عليه والسلام جاء على جهة

---

(١) الكشاف: ٤/ ٤٦ ط الحلبي مصر ١٩٧٢م

(٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ٤/ ٢٤٦٤ ط - دار الريان للتراث - القاهرة.

التمثيل حيث شبهت حالة إعراضه عن الأصنام المعبر عنها بقوله (إني بريء مما تشركون) وقصده إلى إفراد الله تعالى بالعبادة بمن استقبل بوجهه شيئاً وقصده وانصرف عن غيره.

ويلمح ابن عاشور كذلك إلى بلاغة تعدية الفعل (وجهت) هنا باللام ـ مع أنه غالباً ما يتعدى بإلى ـ فيقول إن التعدية باللام تحسن إذا كان الشيء المقصود مراعى إرضاؤه وطاعته من مثل قولك توجهت للحبيب، فاختير تعديته باللام في الآية الكريمة لأن في هذا التوجه إرضاءه وطاعته[1]

٢ـ وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ سورة يونس. وقوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة الروم

تفسر إقامة الوجه خالصاً للدين على معنى تعديل الوجه جهة الدين وعدم الالتفات عنه يميناً ولا شمالا وذلك على سبيل التمثيل ومثّل من توجه بكليته للدين واستقام عليه واهتم بأسبابه بمن اهتم بشيء فعقد عليه طرفه وسدد إليه نظره وقدم له وجهه مقبلاً عليه وهذه الاستعارة التمثيلية ـ كما يرى ابن عاشور ـ كناية عن توجيه النفس بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها[2] وهو تفسير ينسجم مع ما قلناه في البداية بأن الوجه هنا ـ وفي مثل ذلك ـ قصد به الذات بأكملها.

٣ـ وقريب من هذا إسلام الوجه خالصا لله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ سورة البقرة

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ سورة النساء. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ... ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة آل عمران

فإن إسلام الوجه يعني التسليم المطلق لأوامر الله وهو كناية عن تمام الطاعة والاعتراف بالعبودية، وقد أطلق الوجه هنا على الذات كما أطلق على الذات الإلهية ـ ولله المثل الأعلى ـ في قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الرحمن

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير: المجلد: ٧ القسم الثاني ص: ٢٢٣ـ٢٢٤.

(٢) السابق: ١١/ ٣٠٣

القسم الثاني: نظائر الحركات PARAKINETICS:

وفي هذا القسم نتناول بالتحليل البلاغي الآيات التي ورد فيها ذكر الوجه ولم يقم بالحركة أو لم تقع عليه الحركة ولكن اعترته بعض التغيرات الناتجة عن بعض المواقف التي أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث ويتمثل ذلك في المواضع الآتية:

١- بياض الوجه وسواده:

ورد الحديث عن بياض الوجه وسواده في عدة آيات منها ما يبين حالة المؤمنين والكافرين في الآخرة وقد غلب على هذا الموقف أسلوب المقابلة ومنها ما يشير إلى مواقف تعترى الكفار في الدنيا فيظهر أثر هذه المواقف على وجوهم.

أـ ففي الحالة الأولى: يرد قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ سورة آل عمران.

ففي الآيتين مقابلة واضحة بين حال المؤمنين في الآخرة وقد أشرقت وجوههم بنور الإيمان واطمأنت نفوسهم إلى أنهم ـ في هذا اليوم ـ خالدون في رحمة الله، وحال الكافرين وقد اكتست وجوههم بالسواد الناتج من ظلام نفوسهم وكدرة أرواحهم. إن بياض الوجوه وسوادها في هذا اليوم أثر للحالة النفسية التي تعتري كل فريق؛ فالوضاءة والنور للوجوه المؤمنة بسبب ما بشروا به من الخلود في رحمة الله .. والسواد والإظلام للوجوه الكافرة بسبب التقريع والتهديد بسوء المصير (**أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**)

وقد ألمح أبو حيان إلى تأثر الوجوه بالحالة النفسية حين أشار إلى قول العرب لمن نال أمنيته: ابيض وجهه. ولمن جاء خائباً: جاء مسود الوجه[1] كما يؤكد شيخ زاده أن البياض كناية عن الفرح والسرور، وأن السواد كناية عن الكآبة والحزن والغم.

وهذا لا يمنع كونهما على الحقيقة إذ يتأثر لون الوجه (فسيولوجيا) بالعوامل النفسية حيث صفرة الفرق وحمرة الخجل وإشراقة السرور... الخ.

---

(١) حاشية شيخ زاده: ١/ ٦٥٩

أما لماذا بدأ بالبياض في الآية الكريمة(يوم تبيض وجوه) وعند التفصيل ب (أما) عكس فبدأ بالسواد وختم بالبياض؟ فإن لأبي حيان تعليلا لطيفا ينسجم وبلاغة القرآن وهو أنه بدأ بالبياض لشرفه ولأنه الحالة المثلي، وعند التفصيل ابتدىء بالذين اسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم ولمجاورته لقوله تعالى(وتسود وجوه) ولكي يكون الابتداء في صدر الآية بالمؤمنين ويكون الختام بحكمهم فيكون مطلع الكلام ومقطعه شيئا يسر الطبع ويشرح الصدر[1] وهذه الطريقة في التعبير تسمى في علم البديع باللف والنشر غير المرتب حيث لفهما معاً في صدر الآية(يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) فلما نشرهما جاء بهما من غير ترتيب كما رأينا . . والغرض البلاغي من ذلك ـ والله أعلم ـ تغليب رحمة الله سبحانه وتعالى على غضبه حيث افتتح الحديث بأصحاب الوجوه البيضاء فأوحى ذلك بالبشر والسماحة والرحمة وختم الحديث بجزائهم وهو الخلود في رحمة الله فغلب البدء والختام على ما بينهما وهو الحديث عمن اسودت وجوههم وجزاؤهم.

ويبقى أن نشير إلى أن التعبير بالمضارع (تبيض وتسود) يستحضر الصورة أمامنا ويستنزلها من الآخرة في غمضة عين لتنتصب ماثلة أمامنا في دنيا الناس فيزيد ذلك من الترغيب والترهيب ويتحقق الهدف الديني من البلاغة القرآنية بالإضافة إلى الجمال الفني.

كما يرد في الحالة الأولى أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١﴾ سورة الزمر.

فالذين كذبوا على الله في الدنيا ونسبوا إليه الشريك والصاحب والولد ووصفوه بما لا يليق بجلاله تراهم يوم القيامة(وجوههم مسودة) إما على الحقيقة ـ وهو الأرجح ـ[2] حيث يكفهر وجه الإنسان ويربد حين يتضح كذبه ويفتضح أمره. أو على المجاز كناية عن الكآبة والحزن . .

---

(١) البحر المحيط: ٣/ ٢٢

(٢) قلنا بالأرجح اقتناعا بالرأي القائل بأنه متى أمكن حمل اللفظ على حقيقته ولم يوجد دليل يصرفه إلى المجاز فالحقيقة أولى وخاصة أن علم النفس الحديث يربط بين التغيرات الفسيولوجية التي تصيب الجسم والتغيرات السيكولوجية للإنسان.

ويخبر القرآن أن مصير هؤلاء سيكون جهنم(أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) وذلك في مقابل من لم يمسهم سوء ولم يصبهم حزن فلم تسود وجوههم لأنهم حين اتقوا الله في الدنيا نجاهم من هذا المصير.

أما لماذا عبر باسم المفعول في(وجوههم مسودة) مع أن اسم المفعول يأخذ حكم الفعل الماضي ـ إذ يدل على وقوع الفعل على المفعول في الزمن الماضي ـ ويوم القيامة مستقبل لم يأت بعد ؟ فإن ذلك للدلالة على تحقق الوقوع. وقد درج القرآن على ذلك(إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المتوعد بها)[1]

بـ وفي الحالة الثانية: وهي اسوداد الوجه في الدنيا فإن ذلك قد اعترى فريقاً من الكفار كانوا ينسبون إلى الله البنات ويزعمون أن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناث. وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ سورة النحل

إن القرآن الكريم ـ على سبيل مجاراة الخصم في ادعائه وجهله ـ يسخر منهم ويبين لهم شطط تفكيرهم وقلة حيائهم حين ارتضوا أن يجعلوا لله شر الجزأين (في نظرهم) وهو البنات بينما اختصوا أنفسهم بالذكور فهو يفحمهم بالحجة إذ يذكرهم بما يحدث لأحدهم حين يبشر بالأنثى: إن وجه يربد ويسود وإن قلبه ليمتلىء بالهم والغم، وإن الخجل والشعور بالعار ليدفعانه دفعاً إلى التواري عن أعين الناس والوقوع في الحيرة والاضطراب أيحتفظ بالأنثى ويعيش ذليلا بين قومه أم يبادر فيدفنها في التراب ويتخلص من عارها ؟ فكيف.. مع كل هذا تحكمون لله بالبنات ولكم بالذكور(**ألا ساء ما يحكمون**)

ولقد كان بعضهم يهجر بيته إذا وضعت إمرأته أنثى.

فتسترضيه زوجته وتناشده العودة قائلة:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا   يظلُّ في البيت الذي يلينا
غضبانَ ألا نلدَ البنينا   ليس لنا من أمْرنا ماشينَا
وإنما نأخذ ما أُعطينا[2]

---

(١) الإكسير في علم التفسير: للطوفي ـ تحقيق د. عبد القادر حسين ص: ١٤٥ المطبعة النموذجية.

(٢) وردت الأبيات في الكشاف: ٤/ ٢٤٣ وإن كنا نشك في صحتها ونرجح أنها مصنوعة من قبل بعض الوعاظ أو المفسرين ـ ورواية القرآن الكريم في تصوير ذلك أصدق وأبلغ.

ونعود إلى بلاغة التعبير بالوجه حيث يظل طول النهار مسوداً ويظل قلبه كظيما مملوءاً بالحزن والغم . . فالتعبير بـ (ظل) ـ التي تفيد قيام صفة خبرها باسمها نهاراً ـ يوحي بأن البشرى جاءته في أول النهار حيث إن معظم الولادات تتم في الليل ولا يذاع الخبر ـ عادة إلا في الصباح، ومن ثم فإن نهاره من بدايته إلى نهايته مغلف بالحزن الذي يكسو وجهه بالسواد، فاسوداد الوجه تعبير عن العبوس والغم الذي لحقه بولادة الأنثى .

والتعبير بالبشرى عن خبر ولادة الأنثى ـ وهو خبر سيء لهم ـ والبشارة لا تكون إلا للإخبار بما يسر . . هذا التعبير (يحدث تناقضا يثير في النفوس الطرافة أو العجب، فإن الذهن حين يرد عليه لفظ البشرى، يوطن خياله على مسار معين هو صورة سرور وفرح قادم ولكنه يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه وهو الألم والحزن)[1]

وهذه طريقة القرآن في السخرية من أعداء الله حيث تنفذ السخرية إلى أعماق نفوسهم فتزيدهم حيرة وألما وتجعلهم موضع السخرية من الآخرين .

كما أن التعبير بـ (كظيم) التي تفيد امتلاء القلب بالحزن تعطي نوعاً من التقابل المعنوي بين ما يكنه قلبه من الهم وما يظهر على وجهه من السواد .

٢- نضرة الوجه ونعومته :

يرد الحديث عن نضرة الوجه ونعومته وإشراقه واستبشاره في سياق وصف القرآن الكريم لأصحاب الجنة وما يلقون فيها من نعيم وتكريم يظهر أثره على الوجوه وذلك في قوله تعالى :

ـ(**وجوه يومئذ ناضرة)** سورة القيامة : الآية ٢٢ـ٢٣

ـ(**وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة)** سورة عبس : الآية ٣٨ـ٣٩

ـ(**وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية)** سورة الغاشية : الآية : ٨ـ٩

ـ(**تعرف في وجوههم نضرة النعيم)** سورة المطففين : الآية : ٢٤

ولقد سبق أن رأينا وجوه الكافرين في النار وما يصيبها من لفح وكب وكبكبة ووسم وتقليب وسحب . . ولكن وجوه المؤمنين في الجنة (ناضرة) تكسوها النضرة ويعلوها الرونق والحسن ثم إنها (**إلى ربها ناظرة)** مستمتعة بالنظر إلى وجهه الكريم (ونظر الوجوه إلى الله للتوقع والرجاء كقول القائل :

---

(١) التصوير الساخر في القرآن الكريم . د . عبد الحليم حفني / ٢٢٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٩٢م

وإذا نظرتُ إليك منْ مَلك والبحرُ دونك زدْتَني نعَمَا[1]

وهذه الوجوه (مسفرة) يشعَ منهاَ الَضياء كإسفار الصبح بعدَ الَظلاَم، وهي(ضاحكة مستبشرة) لأن كل ما حولها من النعيم والتكريم يدعو إلى السرور والبشر والتفاؤل.

وأخيراً فإنك في الآخرة لن تخطىء في التعرف على هذا الفريق المؤمن في الجنة، فهم أبرار مطهرون متكئون على الأرائك، تراهم فتعرف نضرة النعيم وبهجة التنعم وماءه ورونقه في وجوههم.. وإضافة (نضرة) إلى (النعيم) إضافة السببية فالمضاف إليه وهو (النعيم) سبب في المضاف وهو (النضرة).

ونلاحظ أن أوصاف الوجوه السابقة وردت كلها بصيغة اسم الفاعل (ناضرة. ناظرة ـ مسفرة ـ ضاحكة ـ مستبشرة ـ ناعمة ـ راضية) ولم ترد بصيغة الفعل. ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن اسم الفاعل يدل على الثبوت والدوام بينما يدل الفعل على التجدد والانتقال، وبما أن نعيم الجنة خالد ودائم، فقد ناسب التعبير باسم الفاعل ـ وقد أشار عبد القاهر إلى ذلك وهو يوضح الفرق بين قوله تعالى: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد..) وقولنا(وكلبهم يبسط ذراعيه بالوصيد) فذكر أن أحداً لا يشك في أن الفعل (يبسط) لا يؤدي الغرض وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت- بينما الاسم يقتضي ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا ـ ثم يؤكد ذلك بأنه لا فرق بين(وكلبهم باسط) و(كلبهم واحد) في أنك لا تثبت مزاولة ولا تجعل الكلب يفعل شيئا، بل تثبته بصفة هو عليها ـ فالغرض إذن هو تأدية هيئة الكلب[2]

ويمكن أن نضيف إلى ذلك ملمحا آخر للتعبير باسم الفاعل وهو أن المؤمنين الذين وصفت وجوههم بهذه الأوصاف (ناضرة، ناظرة.. الخ) كأنهم فاعلون لها بأنفسهم لما فعلوا في الدنيا ما يستوجبها في الآخرة.

كما أن مما يلفت النظر أيضا أن تلك الأوصاف الجميلة وردت كلها متقابلة مع أوصاف وجوه الكافرين في الآيات اللاحقة أو السابقة فوجوه المؤمنين (ناضرة ـ مسفرة ـ ضاحكة ـ مستبشرة ـ ناعمة ـ راضية).

أما وجوه الكافرين فهي (باسرة عليها غبرة ـ ترهقها قترة ـ خاشعة ـ عاملة ـ ناصبة)

---

(١) البحر المحيط: ٨/ ٣٨٩

(٢) انظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ـ ص: ١٧٥ تحقيق محمود شاكر ط: الخانجي ـ مصر

وسوف نولي هذه النقطة عناية خاصة عند الحديث عن الوجوه الباسرة العابسة المنكرة)

٣- سَوْءُ الوجوه

ورد الحديث عن سَوْءُ الوجوه بمعنى كلوحها وكسوفها وظهور الكآبة عليها في موضعين من القرآن الكريم:

أـ الموضع الأول: في قوله تعالى عن بني إسرائيل(.. .فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. ﴿٧﴾ سورة الإسراء.

وقصة بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض مرتين معروفة ومعروضة في كتب التفاسير، والحديث في هذه الآية عن الإفساد الثاني، وقد توعدهم الله سبحانه وتعالى بأنه إذا حدث منهم ذلك فسيبعث عليهم عباداً أشد بأساً منهم ليسوءوا وجوههم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً. فجواب إذا في الآية محذوف دل عليه جواب إذا الأولى[(١)]

والذي يهمنا هنا هو التعبير بجملة (ليسوءوا وجوهكم) فإن الوجوه هنا كما قلنا في أكثر من موضع يحتمل أن تكون على الحقيقة، لأن آثار الأعراض النفسية في القلب تظهر على الوجه. أو على المجاز إشارة إلى الذوات أو إلى وجهاء القوم وسادتهم.

ولفظ (السوء) كما يشير الزمخشري في أساس البلاغة: (اسم جامع لكل آفة وداء)وذلك يعني أن وجوه بني إسرائيل قد اعتراها أو سيعتريها الخزي والعار والكآبة والاربداد والكلوح وما شئت من الآفات والأدواء.

بـ والموضع الثاني: ورد في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ سورة الملك

والفهم العام لسياق الآية يظهر وقعها على النفوس، ومقدار ماتزرعه في القلوب من هلع وخوف من لقاء هذا اليوم حتى إن بعض الزهاد تلاها في أول الليل في صلاته، فبقي يكررها وهو يبكي إلى أن نودي لصلاة الفجر.[(٢)]

---

(١) (إذا) الأولى: هي الواردة في الآية رقم (٥) في قوله تعالى(فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد..)

(٢) الكشاف: ٤/ ٥٨٣

ـ ففي آية سابقة يتساءل الكفار في سخرية واستهزاء(متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وحين تحقق هذا الوعد ورأوه (زلفة) أي قريباً وواقعاً لا محالة، سيئت وجوههم (بان عليها الكسوف والقترة وكلحوا كما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب)[1] وقيل لهم ـ في سخرية لاذعة تقابل سؤالهم الساخر ـ (هذا الذي كنتم به تدعون)

إن التعبير بـ (سيئت) بالبناء للمفعول يدل على أن هناك قوة قاهرة أثرت عليهم فظهر السوء في وجوههم دون إرادتهم. وعلى كره منهم، ومجيء الفعل بالماضي: لتحقق الوقوع وهذه الطريقة القرآنية في عرض ما سيكون كأنه كائن بالفعل (تتكرر في القرآن الكريم لمواجهة حالة التكذيب أو الشك بمفاجأة شعورية تصويرية توقف المكذب وجهاً لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه)[2]

٤- غَبَرَةُ الوجوه ورَهَقُهَا وقَتَرُها وذِلَّتُهَا:

بالبحث عن المعنى المعجمي لمفردات (غبر ـ رهق ـ قتر) وجد أن مادة (غبر) تدور حول التراب والغبار ومن الغبار اشتق اسم (الغَبَرَة) وهو ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه.

أما الرَّهَقُ: فهو الدنو من الشيء ورهقه: غشيه، وصبي مراهق: مدان للحلم، والإرهاق: (أن تحمل الإنسان على ما لا يطيقه).

والقَتَرُ: سواد كالدخان، وقتار الشواء: دخانه، وقتر الشواء: هيج الغبار. والقترة: شبه دخان يغشي الوجه من الكذب. وبوجهه قتر وقترة: هو ما يغشاه من غبرة الكرب والموت)[3]

وبوضع هذه المفردات في تراكيبها القرآنية، ووضع التراكيب في سياقها من الآيات: نرى أن قوله تعالى

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ سورة عبس.

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ

---

(١) السابق: ٤/ ٥٨

(٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٦٤٧

(٣) انظر في ذلك: أساس البلاغة للزمخشري، والقاموس المحيط، ومفردات غريب القرآن.

قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾
سورة يونس.

نرى أن تلك الآيات إنما تأتي في وصف أحوال الكافرين يوم القيامة وما يلقون من عنت وعذاب يظهر أثره على وجوههم، في مقابل أحوال المؤمنين وما يوهبون من تكريم ونعيم ينعكس على وجوههم.

فالكفار في سورة (عبس) - من هول الصاخة التي يفر المرء فيها من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه - تكسو الغبرة وجوههم بسبب الغم الذي يتملكهم وترهق القترة - التي هي سواد كالدخان - محياهم فتحيله إلى شيء كريه مقزز مثير للسخرية (ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت. وكأن الله - عز وجل - يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور إلى الكفر)[1]

كل ذلك في مقابل وجوه المؤمنين المسفرة الضاحكة المستبشرة.

أما الكفار في سورة (يونس): فهم الذين كسبوا السيئات في الدنيا، والتعبير بالكسب هنا يوحي بمسؤوليتهم المباشرة عن هذه السيئات، لأنهم كسبوها بأنفسهم ولذلك عاجلهم القرآن بالحكم العادل (جزاء سيئة بمثلها)

ومن ثم فإن ما يصيبهم من الكرب والرعب في هذا اليوم يظهر أثره الحسي على وجوههم فتراها مرهقة بالقتر والذلة والانكسار، وتبدو كأنها ملطخة بقطع من ظلام ليل حالك السواد. وهذا السواد الحسي مناظر للسواد المعنوي المستتر في نفوسهم. وفي هذا اليوم لن يعصمهم من عذاب الله عاصم فهم في النار خالدون.. وفي المقابل ترى المؤمنين الذين أحسنوا في الدنيا (ولم يكذبوا على الله كالكفار) تراهم أصحاب وجوه بيضاء مشرقة لا يرهقها القتر ولا تبدو فيها الذلة.. لأنهم أحسنوا العمل في الدنيا فكانت الحسني - وهي الجنة - جزاءهم ثم كانت (الزيادة) فوق ذلك وهي التنعم برؤية وجهه تعالى.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٧٠٦

٥- الوجوه الباسِرَةُ والعابِسَةُ والمُنْكَرة:

وهذه طائفة أخرى من أوصاف الوجوه في القرآن الكريم وردت في قوله تعالى:

أ- ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ سورة القيامة

ب- ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ سورة المدثر

ج- ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ سورة عبس.

د- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ سورة الحج.

أ- ففي سورة القيامة وصفت وجوه الكفار بأنها ستكون في هذه اليوم (باسرة). وتشير المعاجم إلى أن مادة (بسر) يمكن أن تعني: طلب الشيء قبل وقته، فيقال: بَسَرَ الدَّيْنَ: تقاضاه قبل محلّه، وأبْسَرَ السِّقَاء: شرب منه قبل أن يروب مافيه، وهي تعني أيضاً: الكلوحة أي شدة العبوس والتقطيب، وتغير اللون، ولا تبتعد تلك المعاني عن وصف وجوه الكفار بها في الآية الكريمة إذ تفيد هنا أنهم عندما عرفوا مصيرهم حيث **(ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)** صارت وجوههم شديدة العبوس كالحة مقطبة. وهي بهذه الصفات تعبر أصدق تعبير عن حالة البأس الذي اعتراهم والخوف الذي تملك قلوبهم من توقع (فاقرة) أي داهية عظيمة تكسر فقار ظهورهم.. وكل هذا قبل أوان دخولهم الفعلي إلى النار مما يتناسب مع المعنى اللغوي لمادة (بسر).

وفي هذه إشارة إلى أن ما سيصيبهم بعد ذلك أشد وأنكى. ولاشك أن مما يزيد التأثير في النفوس - في الدنيا - أن توضع صورة الكفار في مقابل صورة المؤمنين أصحاب الوجوه (الناضرة) المتلذذة بالنظر إلى وجه الله الكريم.

وأسلوب القرآن بهذه الطريقة ينقل الصورة بوجهيها المتقابلين إلى المتلقي على امتداد الزمان واتساع المكان في الدنيا حتى لا يعذر أحد يوم القيامة و﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿١٦٥﴾﴾ سورة النساء

ب- وفي سورة المدثر: يأتي لفظ (عبس وبسر) وصفا لوجه الوليد بن المغيرة (وقصته مع سادة قريش بشأن القرآن معروفة)

وقد سجل القرآن موقفة من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن القرآن بتفصيل دقيق إذ تابعه لحظة بلحظة ورصده وهو غارق في التفكير والتقدير ورسمه وهو ينظر ويقلب الأمر على وجوهه . . ثم سلط الأضواء على وجهه المتأثر بالموقف ثم لحظة نكوصه عن رأيه السابق حين أدبر واستكبر وقال إن هذا إلا سحر يؤثر . . الخ .

ونعود إلى وجه الوليد فهو (عابس وباسر) ومقطب وكالح من طول ما أجهد صاحبه نفسه في النظر والتفكير والتقدير للخروج من المأزق الذي وضعه فيه أصحابه حين تكاثروا عليه يقودهم أبو جهل كي يقول في القرآن قولاً يرضيهم، فتقطيب الوجه وكلوحه وتغير ملامحه تعبير بلغة الوجه عن تلك الحالة النفسية والصراع العنيف بين الثبات على رأيه الأول في القرآن وهو (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة. . الخ) أو العدول عنه إلى النقيض الذي يرضي سادة قريش .

ج ـ وفي سورة عبس : يأتي وصف الوجه بالعبوس في الاتجاه غير المتوقع إذ يأتي وصفاً لوجه الرسول صلى الله عليه وسلم وهنا يكمن سر من أسرار الإعجاز القرآني وهو أنه ليس كما يزعم الزاعمون من صنع محمد بل هو وحي يوحى ، فلم يستثن هذا الوحي محمداً من وصف وجهه بالعبوس في معرض عتاب لاذع له لأنه عبس في وجه أعمى وأعرض عن الاستماع إليه مفضلا الاستمرار في الحديث إلى بعض صناديد قريش[1] . . ولو كان القرآن من صنع محمد لأعفى نفسه من هذا العتاب .

لقد عبس الرسول صلى الله عليه وسلم في وجه الأعمى وأعرض عنه، واستمر في الحديث مع هذا الوفد رجاء أن يسلموا فيسلم بإسلامهم خلق كثير، فعاتبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ذلك عتابا شديدا لأن ما فعله يوهم في ظاهره أن محمداً يحابي الأغنياء ويهمل الفقراء ولا يليق هذا بالنبي بالإضافة إلى أن الأعمى أولى من غيره بالترفق والرعاية . .

ومن هنا جاء التعبير في بداية السورة بصيغة الغيبة (عبس وتولى) بدلاً من صيغة الخطاب (عبست وتوليت) للإشعار ـ كما يقول شيخ زاده ـ (بأن العابس والمتولي شخص آخر غير المخاطب بالوحي وأنه يُشْكَى إلى المخاطب (صلى الله عليه وسلم) من فعله وذلك يدل على أن ذلك الفعل منكر لا يتصور وقوعه ممن جبل على خلق عظيم وبعث رحمة للعالمين وإنما المتصور أن يقع ذلك من غيره .

---

(١) كان من هولاء : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل والعباس بن عبدالمطلب وأمية بن خلف والأعمى هو : ابن أم مكتوم (عبدالله)

أما العدول بعد ذلك إلى صيغة المخاطب في(وما يدريك لعله يزكي) فلمزيد من الإنكار والتوبيخ .[1]

ورغم أن عبوس وجه الرسول صلى الله عليه وسلم إنما حدث كرد فعل طبيعي للغريزة الإنسانية التي يستجيب الوجه فيها للمشاعر النفسية التي تعتري البشر جميعاً حينما يقاطع حديثهم أحد، وخاصة إذا كان المتحدث إليه ذا شأن ـ كصناديد قريش في حالة الرسول وكان المقاطع ليس في حاجة ملحة إلى المقاطعة ـ كما في حالة ابن أم مكتوم ـ أقول: رغم ذلك فإنه الله ـ سبحانه ـ عاتب رسوله هذا العتاب الشديد كنوع من التأديب الذي يسمو بنفس الرسول ويرتقي بها إلى آفاق أعلى من طبائع البشر حتى تتحقق فيه القدوة ويتجسد المثال . وصدق الله إذ يقول ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ سورة الأحزاب

هذا بالإضافة إلى حكمة أخرى من هذا العتاب وهي أن الله ينبه الرسول وينبهنا إلى رفعة مكانة هؤلاء الضعفاء ـ أمثال ابن أم مكتوم ـ بسبب قوة إيمانهم، فقد أمره الله في آية أخرى بالصبر عليهم قائلاً ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (سورة الكهف) .

د ـ وفي سورة الحج: يتم التعبير عن تغير الوجه بلفظ جديد هو (المنكر)(**تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر .**)

وقد فسر المنكر هنا بما يظهر على وجوه الكافرين من تجهم وبسور وكلوحة نتيجة الغضب الشديد والحنق على المسلمين الذين يتلون كتاب الله .

إن القلب البشري إذا امتلأ بمشاعر الكراهية والغيظ وتشبع برغبة عدوانية في البطش والأذى ـ كما في حالة الكفار هنا ـ ظهر أثر ذلك على الوجه بما سمى هنا ب (المنكر) وهو اسم مفعول بمعنى الإنكار (وقد آثر القرآن الكريم التعبير باسم المفعول هنا على التعبير بالمصدر لأن المصدر كما هو معروف يدل على الحدث فقط، بينما اسم المفعول يدل على الحدث والذات وفي ذلك دلالة على معرفة عين الشيء المنكر وليس مجرد الإنكار . . .)[2]

---

(١) انظر في ذلك: حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: ٤/ ٦٢٠ .

(٢) انظر في ذلك: التصوير بالإشارة والحركة الجسمية . د. هنداوي: ٩٤ .

ولقد فضحت وجوه الكافرين ـ بظهور المنكر فيها ـ ما تمتلىء به صدورهم من غضب وغيظ على المؤمنين لا يلبث أن يتحول إلى سطو وبطش بهم ومن ثم قوبلت هذه الروح العدوانية الشريرة بما هو أشر منها وهو الوعيد والتهديد بالنار وبئس المصير﴿ ... قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

٦- الوجوه العَانِيَة والخاشعة والناصِبَة:

ومما يدخل في سياق نظائر الحركات الخاصة بالوجه، ما يظهر على الوجوه من علامات الذلة والخضوع والخشوع والشقاء والنصب وذلك عندما يتعرض أصحابها لمواقف محبطة أو مخيبة للآمال، أو يقعون تحت ضغوط القهر والتعذيب والإرهاق، وهذا أمر مشاهد في الدنيا لا تخطئه عين الخبير.

ولكن الأمر في الآخرة أشد وأقسي، وخاصة على الكفار والعصاة الذين طالما حذروا من الحشر والعرض والحساب فلم يأبهوا، حتي إذا ووجهوا بذلك أسقط في أيديهم وظهرت هذه العلامات المذكورة على وجوههم ـ ونجد هذا واضحاً في قوله تعالى ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ سورة طه وقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ (سورة الغاشية).

فالعصاة في سورة طه ـ حين عاينوا الخيبة والشقوة وسوء الحساب يوم القيامة، صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاشعة مثل وجوه العناة وهم الأسارى)[١]

– ولا شك أن الموقف يوم القيامة- وخاصة ما صورته الآيات السابقة على تلك الآيةـمن الصعوبة والشدة بحيث يظهر على وجوه الكفار أثره من العناء والخشوع. والتأمل في الآيات السابقة يؤكد ذلك[٢]

– أما وجوه الكفار في سورة الغاشية، فإنها حين غشيتها الغاشية (وهي الداهية التي تغشي الناس بشدائدها يوم القيامة)[٣] ظهر عليها الذل والخضوع والنصب

---

(١) الكشاف: ٣/ ٨٩

(٢) الآيات المقصودة تبدأ من قوله تعالى:(يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . .) إلى(وعنت الوجوه للحي القيوم) سورة طه: الآيات ١٠٢ـ١١١

(٣) البحر المحيط: ٨/ ٤٦٢

والشقاء، وذلك حين عاينت مصيرها الذي فصلته الآيات اللاحقة وهي قوله تعالى (تصلى ناراً حامية .)الخ .

وقد جاءت وجوه الكفار بهذه الصفات المذكورة (خاشعة، عاملة، ناصبة) مقابلة لوجوه المؤمنين التي سبقت الإشارة إليها وهي الوجوه الناعمة التي يظهر عليها الرضا والسعادة لما أعد لها من جزاء طيب .

٧ - تَصْعِير الخدّ:

- ونختم كلامنا عن تغييرات الوجه بتصعير الخد والصعر في الأصل: (داء يأخذ الإبل في رؤوسها فتلتوى منه أعناقها)[١]

- فإذا استعير للإنسان أفاد معنى الكبر والتعالي والإعراض عن الناس، وقد نهي القرآن الكريم عنه ضمن وصايا لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ . . ﴿١٨﴾﴾ سورة لقمان

- وقد جاء النهي عن الكبر هنا في صورة النهي عن مجرد إمالة الخد عن النظر إلى الناس، وهو يعني النهي عن الإعراض عنهم بكل الوجه، فالتعبير هنا بالجزء وإرادة الكل ويستفاد من ذلك (أن النهي عن الأدنى يلزم منه النهي عن الأعلى، وهو الطريق الأبلغ في النهي عن التكبر على منوال قوله تعالى(ولا تقل لهما أف .) لأن دلالة النهي عن التأفف تدل على النهي عن الضرب)[٢]

- كما أن الكناية عن صفة الكبر هنا توحي بأن الكبر داء يصيب بعض الناس فيفقدهم الاعتدال والاتزان وينفر منهم الناس)[٣]

- فتصعير الخد كما تلوي الإبل أعناقها - يزري بالهيئة الحسنة وبالقوام المعتدل .
تلك الهيئة وذلك القوام اللذين عبر عنهما القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة الانفطار ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ وفي سورة التين ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ .

- ومن يتكلف تغيير تلك الصورة باللجوء إلى هذه الهيئة الزرية بقصد الاستعلاء والاستكبار على الناس - إنما يعكس شعوراً نفسياً كاذباً بالتميز والتفوق

---

(١) لسان العرب (صعر)
(٢) البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية . د. هنداوي: ١٢٨
(٣) فنون التصوير البياني ، د. توفيق الفيل ٢٩٤ ط الكويت ١٩٨٧ .

على بقية الناس . وهذا الانحراف الجسدي بالوجه والخد تعبير بلغة الوجه عن الانحراف النفسي والخلقي.

- وفي الآية كذلك استعارة مكنية حيث شبه المتكبر بالبعير المصاب بداء الصعر بجامع لي العنق فيهما، ثم حذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو الصعر، وبلاغة الاستعارة هنا تكمن في التنفير مما يشبه الصعر وهو الكبر والتعالي، كما إن ذلك يبقي صورة المتكبر الشائنة ماثلة أمام كل من يتلو القرآن فيرعوي عنها وينفر منها.

- ثم إن تشديد العين في الفعل (تصعر) يدل على المبالغة في الفعل والتكلف فيه وهذا أمر مذموم.

- والتعبير بالخد، لأنه أعلى الوجه وبه ترتسم أمارات الكبر أو التواضع وإضافته إلى كاف الخطاب (خدك) يستحضر صورة المصعر خده أمامنا كأننا نراه، فنسخر منه ومن استعلائه الكاذب كلما تليت تلك الآية.

- ولفظ (للناس) يوحي بمدي تأثير هذا السلوك الشائن على مشاعر الناس وإحساسهم، (فالكبر مرض نفسي يمتد أثره من الشخص المريض إلى الناس فينمي فيهم روح الكراهية والتباعد . . ويزيد في البغض الاجتماعي)[1]

- أما بقية الآية الكريمة وهي :(. . . **ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور**) فإنها نهي عن العجب بالنفس والخيلاء على الناس والتبختر في المشي . . وهذا النهي امتداد للنهي الذي صدرت به الآية وهو تصعير الخد، وهو وثيق الصلة به لأن كليهما من صفات المتكبرين، ونادراً ما ترى المصعر خده تكبرا إلا مختالا في مشيته مزهوا بنفسه.

- ونشير في النهاية إلى أن الهدف الديني من عرض صورة المتكبر بهذه الواقعية الحركية الساخرة مما يزيد الناس بغضاً في صفة الكبر والمتصفين بها ويدعوهم إلى التواضع ونشر روح المحبة والمودة بين الناس وبذلك تؤدي البلاغة القرآنية طَلَبَةَ الفن بالتعبير الجميل وطَلَبَةَ الدِّين بالتنفير من هذه الصفات الذميمة . .

- وأخيرا فإننا نرجو بذلك أن نكون قد تتبعنا التعبير بالوجه في القرآن الكريم في مختلف أوضاعه وألوانه وخلجاته وأن نكون قد كشفنا عن لغة الإشارة الخاصة بالوجه وبلاغتها وقدرتها على الإبانة عن أدق أسرار النفس البشرية وأحوالها والله المستعان.

---

(١) راجع ذلك بتوسع في (التصوير الساخر في القرآن الكريم) د. عبد الحليم جفني ص: ١٧٥ .

مراجع البحث

أولا : القرآن الكريم :

ثانيا :

١ـأساس البلاغة . الزمخشري . ط : دار الفكر-بيروت ١٩٨٩

٢ـأسباب النزول ، السيوطي ، هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم . إعداد : محمد الحمصي . ط دار الرشيد ـ دمشق .

٣ـأسرار البيان ـ د . علي العماري ، مصر ، ١٩٩٢م .

٤ـالإشارات الجسمية : دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل د . كريم زكي حسام الدين ، ط : الأنجلو المصرية ـ مصر ١٩٩١م

٥ـأصوات وإشارات ـ كوندرانوف ـترجمة : إدوار يوحنا ط ١ـ وزارة الإعلام- العراق ـ وله ترجمة أخرى لشوقي جلال ، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٦ـالإكسير في علم التفسير ـ الطوفي ـ تحقيق د . عبدالقادر حسين ، المطبعة النموذجية . مصر

٧ـالبصائر والذخائر ـ أبو حيان التوحيدي : علي بن محمد بن العباسي . تحقيق : أحمد أمين ط/ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ـ١٩٥٣م

٨ـالبلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية ـد . عبدالله هنداوي ط . الأمانة ، مصر ١٩٩٥م

٩ـالتشبيهات ـابن أبي العون (أبو إسحق إبراهيم بن محمد)ت : د . محمد عبد المعين ط . كمبردج ١٩٥٠ .

١٠ـالتصوير الساخر في القرآن الكريم ـد . عبد الحليم حفني . ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م

١١ـتفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)القاضي البيضاوي ـ المكتبة الإسلامية ـ ديار بكر ـتركيا .

١٢ـتفسير البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي الغرناطي ـ محمد بن يوسف : (دار الفكر ، بيروت) .

١٣ـتفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور . الدار التونسية للنشر .

١٤ـتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط/ دار الريان للتراث ـالقاهرة

١٥ـتفسير النهر الماد من البحر ـ أبو حيان الأندلسي ، هامش على البحر المحيط

١٦ـحاشية محيي الدين شيخ زاده ـعلى تفسير البيضاوي ، المكتبة الإسلامية ـ ديار بكر ـتركيا

١٧ـالخصائص ـ ابن جني ـتحقيق : محمد على النجار ـ ط ـ بيروت

١٨ـدراسات في علوم اللغة ـد . فاطمة محجوب ـدار النهضة العربية ـمصر .

١٩ـدلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ ت : محمود شاكر ط : الخانجي ـ مصر

٢٠ـديوان حسان بن ثابت الأنصاري ـ طـدار صادر ـ بيروت

٢١ـشرح ديوان المتنبي- البرقوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٨٧م

٢٢ـالظرف والظرفاء ـ الوشَّاء (أبو الطيب محمد بن إسحاق)عامل الكتب بيروت ١٣٢٤هـ

٢٣ـفنون التصوير البياني ـ د . توفيق الفيل ـ الكويت ١٩٨٧م

٢٤ـفي ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق ـ مصر ١٩٨٥م

٢٥ـالقاموس المحيط ـ الفيروز آبادي طـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .

٢٦ـكتاب الفراسة ، الرازي (أبو عبدالله فخر الدين محمد بن عمر(ت ـ د . يوسف مراد : ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ـ ١٩٨٢م

٢٧ـالكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل الزمخشري(جار الله ، محمود بن عمر)دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٢٨ـلسان العرب ـ ابن منظور ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب . مصر

٢٩ـمشاهد القيامة في القرآن ـ سيد قطب ط ٦ ـ دار المعارف . مصر

٣٠ـالمفردات في غريب القرآن ـ الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)ت ـ محمد سيد كيلاني ـ الناشر ـ كراتشي ـ باكستان

٣١ـالانتصاف ـ الإمام أحمد بن المنير الإسكندري ـ حاشية على الكشاف .

حركة اليد في القرآن الكريم

(ودلالتها البلاغية)

ملخّص

هـذا بحث في بلاغة التعبير بحركة اليد في القرآن الكريم يتتبع الآيات التي ورد فيها ذكر الـيد سواء أصدرت الحركة عنها منفردة أم مشتركة مع غيرها من أعضاء الجسم، وسواء أكانت اليد فاعلة للحركة أم مفعولا بها، وسواء أكانت على الحقيقة أم على المجاز.

إن الـيد تقـوم مقـام اللسان أو تشترك معه في التعبير عن المشاعر الداخلية للإنسان من رضا وسخط أو قبول ورفض أو تعجب واستنكار.

وفي القـرآن الكـريم كـثير من تلك المواقف من مثل: وضع الأصابع في الآذان للدلالة عـلى الخـوف مـن الـرعد أو للإعـلان عـن رفـض الاستماع لدعوة الرسل، ومثل عض الأصابع بالأسنان دلالة على الندم، ومثل بسط اليد للتعبير عن الكرم وقبضها للتعبير عن البخل... إلخ.

وتلـك طـريقة في التعـبير بلغة الإشارة Gesture Language قد تكون أحيانا أبلغ مـن اللغـة المـنطوقة Spoken Language وقد استفاد الباحث في بيان المغزى البلاغي لتلك الآيات من كتب البلاغة والتفسير ومما توصل إليه علم الحركة الجسمية Kinesics. إن حقـل الدراسـة البلاغـية لـلحركة في القـرآن الكريم ما زال بكرا وآمل أن يتابع هذا البحث بدراسة شاملة للحركة الجسمية في القرآن.

تقديم:

مع أن اليد في المعاجم العربية تطلق على الكف والأصابع ـ ففي لسان العرب: اليد الكف، وقال أبو إسحاق: اليد من أطراف الأصابع إلى الكف، فإن الاستخدام الشفوى الشائع جرى على إطلاقها على الذراع كلها إلى الكتف، وبواسطة هذا الجزء يقوم الإنسان بكل الأعمال الحيوية، ويستخدمه كذلك في الإشارة أو التلويح ـ بمصاحبة اللفظ أو بدون مصاحبته ـ للتعبير عن عواطفه وانفعالاته ومكنون نفسه.

وكما تطلق اليد في الحقيقة على تلك الجارحة فإنها تطلقه في المجاز على أشياء كثيرة ذكر منها صاحب اللسان ما يلي:

اليد: الغنى والقدرة، تقول: لي عليه يد أي قدرة.

واليد: القوة، واليد: النعمة، والسطان، والملك، والطاعة والجماعة، واليد: الندم. ومنه يقال ـ سُقطَ في يده ـ إذا ندم وأُسْقطَ أي ندم، وفي التنزيل العزيز (ولما سُقطَ في أيديهم) أي ندموا ـ وقال ابن شميل: له عليَّ يدٌ، وأنشد:

له عليَّ أياد لستُ أكْفُرُها وإنما الكفرُ ألا تُشكَرَ النِّعَمُ

وقول الرسول ﷺ: اليَّد العليا خير من اليد السفلى[1].

إننا في حياتنا اليومية نستخدم اليدين ـ وربما بدون وعي أو تفكير مسبق ـ للتعبير عن أشياء كثيرة، مثل: بسط الذراعين للترحيب بالقادم أو التلويح باليد لتوديع المسافر، أو قبض الكف مع رفع السبابة للتحذير أو التهديد، أو ضرب كف بكف للدلالة على التعجب والدهشة، أو عض الأصابع أو قضم الأظافر للتعبير عن الندم أو الاستغراق في التفكير ويعبر عالم اللغة (فندريس) عن ذلك بقوله: إن اليد تمتد وتنكمش كما لو كانت تغوض في أعماق الضمير لتجلب الفكرة الوليدة تعجنها وتصقلها بإعطائها الشكل المناسب[2].

ويذكر علماء اللغة كثيرا من الإشارات اليدوية التي قد تتجاوز الدلالات المحلية إلى النطاق الإنساني، يذكرون من ذلك:

إشارات المرور اليدوية الدولية، وبعض الحركات التي تعبر عن مشاعر إنسانية عامة فالذي يستغرق في التفكير يظهر لنا معتمدا على يده، واضعا خده أو جبهته على كفه،

---

(١) لسان العرب لابن منظور (يدى) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) انظر: الإشارات الجسمية: دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل. د/ كريم زكي حسام الدين ط: ١ ص: ١٨٣، وهذا الكتاب يعتبر من الكتب الرائدة (في المكتبة العربية) في هذا المجال.

كما أن عقد اليدين فوق الصدر دليل على الزهو والافتخار، وهز السبابة يمينا ويسارا يعني الرفض، ووضعها رأسا على الشفتين يعني الأمر بالصمت.

وتتنوع هذه الإشارات الدالة إلى الحد الذي يذهب فيه بعض اللغويين إلى القول بأن اليدين يمكن أن تقوما بتشكيل أكثر من ٧٠٠ إشارة متميزة. وفي كتاب (قواعد الخطابة) للخطيب الروماني (كنتليان) ما يؤكد أن اليدين تعتبران من أهم أجزاء الجسم مساعده للمتكلم لأن بهما نطلب وننادي ونأمر وننهى ونسأل ونجيب، ويعبر بهما عن الفرح والحزن والشك واليقين[١].

وقد فطن علمائنا وأدباؤنا الأوائل إلى أهمية الدلالة الحركية عموما وإلى حركة اليد على الخصوص، وكيف أنها تكشف عن مخبوء النفس وخواطر القلب فالشاعر يستخدم إشارة الأصبع نيابة عن الألفاظ كرسالة حركية تغنى عن الكلام فيقول:

بَنَانُ يَدٍ تشير إلى بنان تَجَاوَبَتَا وما يتكلمان

جرى الإيماءُ بينهما رسولا فأعرب وَحْيَهُ المتناجيان[٢]

ويعتبر الجاحظ اليد معاونة للسان في البيان إذ (لابد لبيان اللسان من أمور منها اليد)[٣] كما يؤكد على أن العقد وهو (عقد الأصابع للعدد ولكل هيئة معينة) هو أحد خمسة الأصناف للدلالة على المعاني من لفظ وغير لفظ[٤] ويؤكد في موضع آخر أن حسن الإشارة باليد والرأس من تمام البيان[٥].

---

(١) السابق: ٥٥، ١٨٢، ١٨٣ بتصرف.

(٢) الزهرة: أبو بكر بن محمد بن داود الأصفهاني ١/ ١٥٣، تحقيق د/ إبراهيم السامرائي، عمان، الأردن، ١٩٧٥م.

(٣) الحيوان للجاحظ: ١/ ٤١، تحقيق فوزي عطوي، ط دار صعب، بيروت، ١٩٨٣م.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٧٦. تحقيق عبد السلام هارون، ط الخانجي، مصر ١٩٦٩م، وبقية الأصناف هي (اللفظ والإشارة والخط والحال أو النصبة).

(٥) السابق: ١/ ٨٨، وللدكتورة فاطمة محجوب بحث طريف عن الحركة الجسمية من خلال البيان والتبيين تحاول فيه الربط بين كلام الجاحظ عن كون (حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان) وعلم الحركة الجسمية أو علم الكينات Kinesics وهو علم يزداد على مر الأيام نموا، وتجرى في مجاله الأبحاث النظرية والمعملية وأصبح يحتل المكانة الجديرة به في علم الاتصال.

فالجاحظ في الفقرة السابقة ينوه بأهمية استعمال الإشارة في فن الخطابة وهذه حقيقة معروفة في علم الحركة الجسمية، وتتناول كتب فن الخطابة أثر الحركة الجسمية المدروسة على حسن البيان والتأثير على الجماهير، دراسات في علم اللغة د/ فاطمة محجوب، ص: ١٠٤

كما اصطلحت الجماعة العربية على اعتبار الإشارة باليد دليلا على معان كثيرة كالتعجب والدهشة والإنكار. وتحفل كتب التاريخ بالمواقف الدالة على ذلك. وفي بعض أحاديث الرسولﷺ ما يشير إلى استخدام حركة اليد أو الأصابع للتعبير عن معان تكون الإشارة فيها أبلغ من العبارة، ومن ذلك قوله ﷺ: بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى[1]، وقوله ﷺ: التقوى هاهنا وأشار إلى صدره الشريف ثلاث مرات[2]، وقوله ﷺ:

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ـ وشبك بين أصابعه[3] ومن تلك الإشارات أيضا ما يقصد به البيان والتثقيف كقولهﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: وكيف بك إذا أبقيت في ضالة من الناس قد مَرِجَتْ (فسدت) عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابع يديه[4].

وفي حادثة الإسراء يروى أن أبا جهل صاح قائلا: (يا معشر بني كعب بن لؤي هلم. فحدثهم. . فمن بين مصفق ورافع يده على رأسه تعجبا وإنكارا)[5].

حفل القرآن الكريم بالصور الحركية لليد، وكل حركة لها دلالتها البلاغية التي قصد القرآن إليها قصدا للتأثير في النفوس حتى تستجيب لدعوة الحق فإن البلاغة القرآنية مرتبطة أشد الارتباط بالأغراض الدينية لأن القرآن كتاب دعوة وتشريع، والوسائل البلاغية طريق إلى أداء الحقائق الدينية على نحو مقنع مؤثر يفتح الأبواب الموصدة ويقتحم القلوب المغلقة، والانتفاع بالقرآن الكريم لا يتم بالوقوف عند مجرد بلاغة التعبير (لأن أداة تلقي القرآن هي القلوب وليست مجرد الآذان ـ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ سورة الشعراء[6].

وحركة اليد أو اليدين في القرآن الكريم قد تأتي منفردة مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ سورة مريم.

---

(١) صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ٢/ ٥٩٢ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي المكتبة الإسلامية / استنابول.

(٢) السابق: ٤/ ١٩٨٦

(٣) مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي هامش على: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا على القاري ص: ٨، حديث رقم ٤٩٥٥، ط المكتبة التجارية، مكة المكرمة ١٩٩٢م.

(٤) السابق، ص: ٩، حديث رقم ٥٦٩٨

(٥) البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلس، ٦/ ٦، ط ٢، دار الفكر ـ بيروت.

(٦) دور البلاغة في تأدية الأغراض الدينية، د/ محمد إبراهيم شادي، ص: ٤، ط، دار السعادة مصر ١٩٩١م.

وقد تشترك اليد مع عضو آخر من الجسم مثل قوله تعالى: ﴿... يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم .. ﴿١٩﴾﴾ سورة البقرة

وقد تلتقي اليد مع شيء أو أشياء خارجة عن الجسم مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ سورة الأنعام: ٧، وقوله سبحانه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ سورة ص: ٤٤. وفي هذا البحث سوف أقف أمام العديد من الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر اليد، سواء أصدرت الحركة عنها منفردة أو مشتركة مع غيرها من أعضاء الجسم، وسواء أكانت اليد فاعلة للحركة أو مفعولا بها وسواء أكانت على الحقيقة أو على سبيل المجاز.

وذلك كي نتبين بلاغة التصوير القرآني في هذا المجال، ولنتعرف على الظلال والإيحاءات التي يهدف التعبير إلى إظهارها كي تؤثر في وجدان السامعين - وسيكون السياق والنظم هما الأساس في بيان المغزى البلاغي مستعينا كذلك بآراء المفسرين وعلماء البلاغة، مستفيدا - ما أمكن - بما توصل إليه علماء السلوك الإشاري - وأود أن أنبه هنا إلى أن علم الحركة الجسمية Kinesics لن يكون بالضرورة إطارا لهذا البحث فهو بحث في البلاغة بالدرجة الأولى وليس بحثا في علم اللغة غير أنه لا مانع من الاستفادة بما يتفق منه مع البلاغة القرآنية - كما أود الإشارة أيضا إلى أن حقل البحث البلاغي في هذا المجال ما زال بكرا، وأمل أن يحفزني هذا لدراسة بلاغة الحركة الجسمية في القرآن الكريم دراسة مستفيضة تتناول أعضاء الجسم كلها، وعلى الله قصد السبيل.

١- وضع الأصابع في الآذان:

ورد ذلك في القرآن الكريم في موضعين مختلفي الدلالة :ـ

الأول في سورة البقرة وهو قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ سورة البقرة.

الثاني: في سورة نوح: ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ نوح.

أـ تأتي الآية الأولى في سياق الحديث عن المنافقين فتصور حالهم بحال من أظلمت عليهم السماء وانهمر منها المطر المصحوب بالرعد والبرق والصواعق، فوقعوا في الحيرة والاضطراب والخوف، ولشدة الصواعق وطرقات الرعد تراهم قد وضعوا أصابعهم في آذانهم خوفا وهلعا ـ وهي صورة حافلة بالسخرية من هؤلاء الذين يظنون أنهم بذكائهم يخدعون المؤمنين فإذا هم كالأطفال الخائفين المذعورين من ظاهرة طبيعية هي ظاهرة البرق والرعد، وهم لسذاجتهم يعتقدون أنهم أصبحوا في مأمن حين وضعوا أصابعهم في آذانهم.

إن الإنسان في الأوقات العصيبة والكوارث العاتية والدواهي العظيمة ينعقد لسانه من هول المفاجأة ويجف ريقه من الخوف ولا يكاد يقدر على الكلام عندئذ تكون الحركة الجسدية هي الملجأ للتعبير عن حالة الهلع والخوف التي اجتاحته.

إن التعبير هنا بالجمع (الأصابع) ـ مع أن الذي يدخل في الأذن هو الأنامل ـ بل أنملة السبابة ـ يوحي بمدى الرعب والخوف الذي أصابهم، فهم يحاولون إدخال الأصابع جميعها. وقد عبر الزمخشري عن تلك المبالغة بقوله: (فإن قلت: رأس الإصبع هو الذي يجعل في الأذن، فهلا قيل أناملهم؟ قلت: هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد الحاصر يحصرها (مجاز مرسل يفيد المبالغة بذكر الكل وإرادة الجزء).

وجاء التعبير ب(يجعلون أصابعهم) بالمضارع للتجدد والاستمرار لمناسبة (كلما أضاء لهم) وجاءت ألفاظ (صيب، ظلمات، رعد، برق) بالتنكير لتشيع في النفوس جوا من الرهبة والخوف يتناسب مع وضع الأصابع في الآذان حذر الموت.

كما فصلت جملة (يجعلون أصابعهم..) عما قبلها: لشبه كمال الاتصال وهو أن تكون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى لوقوعها جوابا لسؤال يفهم من الأولى فتفصل

بينهما كما يفصل الجواب عن السؤال، فكأن قائلا قال (فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: يجعلون أصابعهم في آذانهم).[1]

وتلتئم حركة الأصابع هنا مع الحركة التي تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل... إلى الظلمات والرعد والبرق... إلى الحائرين المفزعين... إلى الخطوات الوجلة التي تتحرك ببطء إذا أبرقت وتقف إذا أظلمت ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ وذلك المشهد الحركي الحسي يرمز لحالة نفسية ويجسم صورة شعورية تعكس حالة الاضطراب والتردد بين الإيمان والكفر في نفوس المنافقين، وهي طريقة من طرق القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس.[2]

ب- أما الآية الثانية ﴿كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ...﴾ فإن حركة وضع الأصابع في الآذان - كي لا يستمعوا إلى دعوة الحق تساعد في رسم صورة بليغة لشدة الإعراض، فمحاولة إدخال الأصابع كلها (مجاز مرسل علاقته الكلية وقرينته الاستحالة) أبلغ دليل على شدة كراهيتهم لتلك الدعوة - كما تعكس صورة مزرية ومثيرة للضحك لهؤلاء الحمقى المعاندين الذين يصدون أنفسهم عما ينفعهم رغم وضوح الحق - ويساعد التعليل في (لتغفر لهم) على قبح صنيعهم إذ رأوا المغفرة ماثلة أمامهم ومع ذلك أعرضوا هذا الإعراض العنيف.

وتكتمل صورة هذا النفور بحركة أخرى مصاحبة لوضع الأصابع في الآذان وهي استغشاء الثياب يغطون بها رءوسهم ووجوههم كراهة النظر إلى نوح عليه السلام.[3]

وإن ما قام به قوم نوح عليه السلام من وضع أصابعهم في آذانهم لهو أبلغ من أي كلام يمكن أن يقولوه في هذا المجال للتعبير عن صدودهم ونفورهم.

ولا شك في أن إشارتهم تلك لابد أن تكون مفهومة الدلالة في مجتمعهم وزمانهم - لأن الإشارة الجسمية حركة تتواضع عليها الجماعة اللغوية ترتبط بعواطف الإنسان ومشاعره وانفعالاته الإرادية أو اللاإرادية، ولذلك فإن علماء السلوك الإشاري يؤكدون على أن

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام محمد بن عمر الحسن الرازي ١/ ٤٦٢، دار الغد العربي القاهرة.

(٢) انظر في ظلال القرآن. سيد قطب ١/ ٤٦، ط ١١، دار الشروق، مصر ١٩٨٥م.

(٣) يفسر علماء السلوك الإشاري وضع الأصابع في الآذان بأنه محاولة من المستمع لعدم سماع أي شيء، ولذلك فإنه يصد الكلمات بوضع اليد حول الأذن أو فوقها أو داخلها، وهذه الحركة نسخة راشدية مصقولة من إيماءة اليدين فوق الأذنين التي يستخدمها الأولاد الذين يرغبون في صد توبيخات والديهم، انظر: لغة الجسد آلن بيز، ص: ٥٧، تعريب: سمير شيخاني، ط ٢، دار الآفاق، بيروت، ١٩٩٧م.

(الخلفية الثقافية للشخص يجب أن تؤخذ دائما في الاعتبار قبل القفز إلى الاستنتاجات حول ما يعنيه المرء بلغة الجسد.[(١)]

٢- عض الأصابع والأيدي ورد الأيدي إلى الأفواه:

اشتركت الأنامل والأيدي مع الفم والأسنان في القرآن الكريم في مواضع ثلاثة، اثنين منها في موقف الحسرة والغيظ والندم والثالث في موقف الإعراض والصدود والاستهزاء بالرسل.

أ- في قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾. آل عمران.

نزلت هذه الآية وما قبلها في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين ويواصلون رجالا من اليهود، لما كان بينهم من المصاهرة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، والآيتان تنهيان عن مباطنتهم خوف الفتنة، وتكشف للمسلمين نواياهم وحقدهم.[(٢)]

والناظر في سياق الآيات يجد النهي صريحا عن مباطنة المنافقين واليهود وموالاتهم لما جبلوا عليه من إضمار الحقد والبغضاء في صدورهم مهما قدم المؤمنون لهم من الحب والمودة.

وتصور الآية التي معنا هنا مقدار ما يحملونه من غيظ وغضب وكراهية للمسلمين ـ فهم بعد إظهار المودة المزيفة للمؤمنين وحين يخلون لأنفسهم تراهم يعضون أناملهم من شدة الغيظ.

والعض بالأسنان كما يقول أبو حيان (هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغاضبة ـ كما أن ضرب اليد على اليد يتبع هيئة النفس المتلهفة على فائت قريب الفوت، وكما أن قرع السن هيئة تتبع هيئة النفس النادمة إلى غير ذلك ـ يقول الشاعر:

إذا رأوني أطال الله غيظهم   عضوا من الغيظ أطراف الأباهيم[(٣)]

---

(١) السابق: ١٣

(٢) انظر: أسباب نزول القرآن للإمام أبي الحسن على بن أحمد الواحدي: ١٢٣، تحقيق ودراسة: كمال بسيوني زغلول، ط دار الكتب العلمية بيروت. وانظر كذلك أسباب النزول للسيوطي. هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم. إعداد: محمد حسن الحمصي، ط، دار الرشيد- بيروت.

(٣) البحر المحيط: ٣/ ٤١

ويوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان والإبهام، قال الحرث بن ظالم المري:

فأقتل أقواما لئاما أذلة يعضون من غيظ رءوس الأباهم[1]

ومن ثم كان توبيخ القرآن للمؤمنين شديدا: إذ لا يليق بنا أن نجاملهم وقد علمنا أنهم يودون لنا العنت والمشقة، يظهر لنا ذلك أحيانا في تعاملهم وما تخفي صدورهم أكبر. ومن ثم يأمرنا الله بالدعاء عليهم بالموت غيظا وكمدا ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾. آل عمران ١١٩.

وإن الصورة الحركية التي رسمها القرآن الكريم لهؤلاء القوم وهم يعضون أصابعهم من الغيظ لتعكس حالة الندم الشديد الذي أصابهم لعدم قدرتهم على إيذاء المؤمنين فليموتوا غيظا.

ب- وصورة أخرى للندم نجدها في موقف آخر يصوره قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾. الفرقان.

إن هذا الظالم لنفسه ولغيره، المتجاوز حدود العدل والإنصاف المتبع لقرين السوء في حياته، يجد نفسه يوم القيامة وجها لوجه مع جزائه المنتظر من العذاب وقد كان في الدنيا له منكرا، ولطريق الحق والصواب مجانبا، وعند ذلك يندم على ما فرط ولات ساعة مندم، إنه لذلك يعض كلتا يديه لا يدا واحدة أو بعضهما بالتناوب كناية عن شدة ما تعانيه نفسه المكروبة المتفجعة من الألم والندم على ما فاته وقد كان بين يديه.

والعبرة هنا بعموم لفظ (الظالم) لا بخصوص السبب، فأيا ما كان سبب النزول[2] فإن عض اليد أو اليدين للتعبير عن الندم والغيظ والحيرة هو سلوك حركي بشرى يأتي بطريقة عفوية تلقائية وقت اشتداد الندم والوقوع في الحيرة والاضطراب، أو وقت الغيظ الناتج من الرغبة في الانتقام مع القصور أو العجز عن ذلك.

ويؤيد هذا أن الشاعر العربي قد عبر عن ذلك فهذا تميم بن المعز لدين الله يقول:

---

(١) الكشاف: ١/ ٤٠٧

(٢) ورد في أسباب النزول أن (الظالم): هو عقبة بن أبي معيط وأن (الخليل): هو أُبَيّ بن خلف وأن (عقبة) كان قد مال إلى الإسلام فنهاه عنه (أُبَيّ). انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول. مقبل بن هادي الوادعي ص: ١٠٩، ط: ٢، دار الأرقم، الكويت.

وكم أعض البنان من غضب كأن بين أضلعي شعلا[1]

وعمر بن أبي ربيعة يستخدم تلك الحركة في شعره قائلا:

فَحَيَّيْتُ إذْ فاجأتها فَتَوَلَّهَتْ وكادت بمخْفوض التحية تجهرُ

وقالت وعضَّتْ بالبنان فَضَحْتَني وأنت امرؤٌ مَيْسُوْرُ أمرك أعْسَرُ[2]

وتتوارد دلالات تلك الحركة في كتب المفسرين، فهذا البيضاوي يقول (وعض اليدين وأكل البنان وحرق الأسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة: لأنها من روادفها.[3]

ويؤكد أبو حيان أن عضَّ البنان بسببٍ أمرٌ مشهورٌ بين البشر ويستشهد على ذلك بقول الشاعر:

لو أن سلمى أبصرتْ تَخَدُّدي ودقَّةً في عظم ساقي ويدي

وبُعْدَ أهلي وجَفَاءَ عُوَّدي عضتْ من الوَجْد بأطراف اليد[4]

وميزة السلوك الحركي في القرآن الكريم أن دلالته يمكن أن تفهم من جميع البشر، فهو من النوع الفطري الذي يشترك فيه الجميع ولا تكتمل صورة هذا الندم المعبر عنه حركيا بعض الظالم على يديه إلا مع ما يصاحبها من حديث النفس النادمة، وهو حديث يقطر حسرة ومرارة حين يتمنى الظالم نادما لو كان قد سار على درب الهداية مع الرسول ولم يتخذ قرين السوء صاحبا يضله عن الهداية ثم يخذله في النهاية، وقد ساعدت اللغة المصاحبة للحركة - إلى جانب اللمحات البلاغية الأخرى - في إبراز التحير والغم والندم والتفجع عن طريق أسلوب التمني مع النداء المتحسر. فالنداء هنا لطلب المستحيل ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ ثم نداء الويل والهلاك واستعجاله حتى لا يطول عذابه ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ وتنكير (سبيلا) للتعظيم، أي سبيل الحق والنجاة والتعبير ب(فلانا) كناية عن العَلَم سواء أكان (أُبَيّ بن خلف) أم أي فلان أخر يضل خليله.

---

(١) الديوان: ٣٢٠، وانظر كذلك: الإشارات الجسمية: ٢٠٧

(٢) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: محمد محي الدين عبد الحميد: ٨٨، ط: ١، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٢م.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي، هامش على حاشية محي الدين شيخ زاده: ٣/ ٤٥١، المكتبة الإسلامية، - ديار بكر- تركيا ويفسر الزمخشري (الروادف) بقوله: تذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان مالا يجد عند لفظ المكني عنه... انظر الكشاف: ٣/ ٢٧٦

(٤) البحر المحيط: ٥/ ٤٠٨

ثـم إن الـتعريف في (الرسول) للعهد الذهني وهو محمد ﷺ وفي (الذكر) كذلك أي: الذكر المعهود وهو القرآن أو الإسلام.

والـتعريف في (الشـيطان) للإشـارة إلى خلـيله سمـاه شـيطانا لأنـه أضـله كمـا يضل الشـيطان، ثـم خذلـه ولم ينفعه في العاقبة أو أراد إبليس أو أن (أل) للجنس وإلى كل من تشيطن من الجن والإنس. [١]

ج- أمـا الآيـة الثالثة ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾. سورة إبراهيم.

فقـد وردت في سياق الخطـاب من موسى عليه السلام إلى قومه (في رأي)، وفي (رأي أخر): أنها خطاب من الله لهذه الأمة وخبر قوم نوح وعاد وثمود قصه الله في كتابه. [٢]

وعـلى كـلا الـرأيين فـإن الآيـة تعـرض لصـورة من صور التكذيب قوبل بها الأنبياء السابقون: نوح وعاد وصالح وكثيرون غيرهم لا يعلمهم إلا الله.

فـرغم وضـوح الآيـات البيـنات الـتي جـاء بهـا الرسل فإنهم أنكروا وكذبوا وشكوا وضـللوا، ثـم تأتي الحركة الجسمية تشترك فيها اليد والفم ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ وتصـاحبها عـبارات ﴿كَفَـرْنَا بِمَـا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ لتصور الحنق والغيظ، وليس الندم كما سبق في الآيتين الأوليين.

ومـن يـراجع أقوال المفسرين في دلالة رد الأيدي إلى الأفواه يجد أن القرآن العظيم بهذا التصـوير الحـركي يفـتح الـباب أمام تأويل هذا السلوك الإشاري بما يتفق مع غرائز البشر وطـبائعهم، وكـلها تـأويلات واقعـية تشـهد علـيها وقائع الحياة وصراعها، فإن أصدق الإشـارات الجسـمية مـا صـدر بطريقة طبيعية كما يقول العالـم الألماني (أيبل- أيبز فلت) حيـث أثبـت أن تعـبيرات الابتسام لدى الأولاد المولودين صما ومكفوفين تحدث مستقلة عن التعليم أو المحاكاة الأمر الذي يعني أن تكون إيماءات طبيعية. [٣]

---

(١) الكشاف: ٣/ ٢٢٧

(٢) تفسير النهر الماء من البحر لأبي حيان الأندلسي ٥/ ٤٠٧، ط، دار الفكر، بيروت.

(٣) لغة الجسد: ٩

وبمراجعة الكشاف والبحر المحيط وزاد المسير وفي ظلال القرآن[1] كنماذج من التفاسير نجد أصحابها يفسرون تلك الحركة تفسيرات تدور حول الدوافع النفسية الكامنة وراءها من قبل هؤلاء المكذبين وإن أبلغ الكلام لا يغني في تصوير تلك الدوافع غناء حركة (رد الأيدي إلى الأفواه).

وبعض هذه التفسيرات يتفق مع ما أشار إليه علماء السلوك الإشاري وهم يصنفون لغة اليد التي تقوم في النظام الإشاري مقام اللسان في النظام اللغوي الصوتي، وقد عدوا من ذلك: رفع السبابة ووضعها رأسيا على الشفتين أمرا بالصمت.[2]

وهذا ينطبق على ما أورده أبو حيان في رواية أبي صالح: لما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم أن اسكت: تكذيبا له وردا لقوله واستبشاعا لما جاء به أما التفاسير الأخرى فمنها:

- عضوها غيظا وضجرا.
- ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه.
- أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم﴾ أي هذا جواب لكم ليس عندنا غيره: إقناطا لهم من التصديق.
- جعلوها في أفواه الرسل يشيرون لهم إلى السكوت، وهذا أشنع في الرد وأذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم.
- على سبيل المجاز التمثيلي - مثل من لم يستجب للدعوة الساكت عن جواب الرسول كمن وضع الأصابع فيه.
- أمسكوا أفواههم بأكفهم إظهارا للامتناع عن الكلام كما فعل قوم نوح حين امتنعوا عن السماع بوضع الأصابع في الآذان.
- ينفرد سيد قطب بتصوير تلك الحركة بصورة من يريد تمويج الصوت لِيُسْمَعَ عن بُعْد فيحرك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا فيتموج الصوت ويُسْمَعَ - فيرسم السّياق هذه الحركة التي تدل على جهرهم بالتكذيب والشك وإفحاشهم في هذا الجهر وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق إمعانا منهم في الجهر بالكفر.

---

(١) ارجع في ذلك إلى الكشاف: ٢/٥٤٢، والبحر المحيط: ٥/٤٠٨، وزاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي: ٤/٢٦٦، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، وفي ظلال القرآن: ٤/٢٠٩٠ وتلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي: ١٢٧

(٢) الإشارات الجسمية: ١٨٢

ولا ينتهي السياق إلا بإيراد مصير هؤلاء المكذبين المستهزئين، ففي الآيات التالية لتلك الآية نجد تعبيرات من مثل:

- ﴿لنهلكن الظالمين﴾ بتوكيد الفعل باللام والنون المشددة للدلالة على جدية هذا الهلاك وقوته.
- ﴿ وخاب كل جبار عنيد﴾ التعبير بالفعل الماضي (خاب) لإفادة التحقق والثبوت و(كل جبار) توحي بعدم إفلات أي مجرم، ووصفه ب(عنيد) للسخرية من هذا العنيد المعاند الذي خاب سعيه وظلمه.
- ﴿من ورائه جهنم﴾ وتوحي بالمطاردة والتعقب.
- ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ ببناء (يسقى) للمجهول للدلالة على أن هذا السقي رغما عنه لا بإرادته، وتنكير (ماء) ليذهب فيه الظن كل مذهب ووصفه ب(صديد) للترهيب والتهويل وزيادة النفور من هذا المصير.
- ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ بصيغة التفعل التي توحي بالصعوبة والمعاناة والاستمرار- مع أنه (لا يكاد يسيغه) وهذا للنكاية به. . .
- ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ . . ﴾ نهاية مفجعة للظالم يحيط به الموت من كل مكان وهو يتمنى هذا الموت كي يريحه من الخيبة والماء الصديد والعذاب ـ ولكن الموت يتأبى عليه ويطارده بعد ذلك عذاب غليظ.

٣- تقليب الكفين:

تقليب الكفين أو ضرب اليد على اليد هو كما يقول أبو حيان ـ هيئة النفس المتلهفة على فائت قريب[١] وتؤدى تلك الإشارة من معاني الندم والحسرة ما لا تؤديه الألفاظ فمبلغ الإشارة ـ كما يقول الجاحظ ـ أبلغ من الصوت.[٢]

وقد استخدم الشعر العربي هذه الصورة للتعبير عن التفجع والحزن عندما يموت عزيز لدينا، يقول الوأواء الدمشقي:

استرجَعَتْ سألتْ عني فقيل لها ما فيه مِنْ رَمَقٍ دَقَّتْ يداً بيدِ[٣]

---

(١) البحر المحيط: ٣/ ٤١

(٢) العمدة: ابن رشيق القيرواني: ١/ ٣٠٩، ت محي الدين، ط: ٣، المكتبة التجارية، ١٩٦٣م.

(٣) ديوان الوأواء الدمشقي (أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني: ٢٦٧، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي الدمشقي ١٩٥٠م.

وتقليب الكفين للدلالة على هذه النفس النادمة المتحسرة واضح في قوله تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾. سورة الكهف.

فصاحب الجنتين وأحد الرجلين اللذين يضرب الله بهما المثل في سورة الكهف قد اغتر بماله وتكبر على صاحبه وظن أن جنتيه بما حوتا من نخيل وزروع وثمار إنما هو من مهارته وصنع يديه فإذا به يفاجأ بأن الجنة وما فيها محاطة بالهلاك والبوار من كل جانب ﴿خاوية على عروشها﴾ وهو الذي كان منذ قليل يردد ﴿ما أظن أن تبيد هذه أبدا﴾ هنا يسقط في يديه ويتألم ويتحسر ويندم ويأتي تقليب الكفين مصحوبا بعبارات الندم ﴿يا ليتني لم أشرك بربي أحدا﴾.

وتساعد لغة القرآن المحملة بدلالات الموقف لتؤدي دورها في تجسيم الصورة المزرية والنهاية الأليمة لهذا الظالم لنفسه فالفعل المضارع المضعف (يقلِّب) يفيد الاستمرار مع الشدة، وتعدية هذا الفعل ب(على) (على ما أنفق فيها). لتضمنه معنى (يندم)، والفعل (أصبح) يوحي بأن الهلاك حدث ليلا ولكن صاحب الجنتين فوجئ به صباحا، كما أن دلالة (وأحيط) على الشمول من كل جانب تجعل الندم مضاعفا والألم عظيما.

٤- (المكاء والتصدية) أو الصفير والتصفيق:

يعرض القرآن الكريم صورة حركية أخرى للأكف يضرب بعضها بعضا لا في معرض الحسرة والندم كالآية السابقة. وإنما في معرض السخرية والاستهزاء بمشركي مكة وقت ما يسمونه صلاة، فبينما يدعى هؤلاء أنهم سدنة البيت الحرام وخدامه وأولياؤه فإن فعلهم القبيح صد عن المسجد الحرام وإيذاء لرواده المتطهرين.

والآية التي نحن بصددها هي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنفال.[1]

فقد كانوا ـ كما يقول أبو حيان (يطوفون عراة رجالهم ونساؤهم مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون، يفعلون ذلك إذا قرأ الرسول ﷺ يخلطون عليه صلاته، فأقاموا مقام الصلاة المكاء والتصدية).[2]

---

(١) المكاء: مصدر مكا ـ يمكو ـ وهو الثغاء والرغاء والصفير، وأما التصدية فهي: التصفيق.

(٢) البحر المحيط: ٤/ ٤٩١

هدفهم إذن ليس العبادة وإنما هي طقوس اللغط والصخب (والتهويش)[1] على الرسول ﷺ وعلى دعوته ـ يؤيد ذلك قوله تعالى في آية أخرى تصف أفعال المشركين وأقوالهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. فصلت: ٢٦.

وإذا نحن تركنا تلك الصورة قليلا وذهبنا إلى علم الإشارات الجسمية (الكينات Kinesics) نعرض عليه صلاة المشركين بهذه الطريقة وهل لذلك دلالة معينة ـ فإننا نجده يشير إلى قدم الاهتمام بالتعبير الجسمي حيث بدأ لدى اليونان والرومان بظهور فن التمثيل الصامت Pantomime ومسرحياته التي لقيت رواجا شعبيا عندهم ـ وفيها يستخدم الممثلون ملامح وجوههم وأيديهم وأصابعهم للتعبير عن معان مفهومة ومألوفة بواسطة إشارات عرفية، واعتبر الرقص الهندي ممثلا لهذا التعبير بالإشارات الجسمية[2]

غير أن صورة التمثيل الصامت لا تنطبق في بعض جوانبها على المكاء والتصدية وإن انطبقت على تلك الحركات الجسمية اللافتة للنظر، ولكي نفهم دلالة هذه الحركات فهما حقيقيا فلابد لنا من دراسة الخلفية الثقافية والاجتماعية والدينية لهذا المجتمع قبل القفز إلى الاستنتاجات حول ما يعنيه المرء بلغة الجسد.[3]

والقرآن الكريم هو المصدر المعين لنا على فهم تلك الخلفية وعلى السبب في تلك الحركات وقد بين القرآن لنا أنهم يفعلون ذلك بقصد الصد عن المسجد الحرام وبقصد العبث والإفساد والترويح عن أنفسهم بهذه الصورة المزرية المثيرة للسخرية من هؤلاء الذين يدعون الولاية على المسجد الحرام ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾. الأنفال.

ولا شك في أن المجتمعات البدائية في أفريقيا ـ وقد شاهدت بعضها بنفسي ـ تؤدي مثل تلك الحركات في حفلاتها الوثنية، ولا يستطيع فك تلك الرموز الجسدية إلا واحد منهم. لكني أستطيع القول إن تلك الحركات مناسبة لمستوى تفكيرهم الوثني إذ يعتقدون أنهم بذلك يتقربون لما يعتقدونه آلهة لهم...

---

(١) التهويش: الإفساد ـ يقال هوّش بين القوم أفسد ـ انظر: المعجم الوسيط مادة (هوش)، ط: ٢، مجمع اللغة القاهرة، ١٩٧٢م.

(٢) الإشارات الجسمية، ص: ٥٣

(٣) لغة الجسد: ١٣

وقد ربط سيد قطب بين تلك الصورة القديمة وصورة أخرى حديثة هي صورة العازفين الصاخبين المصفقين والممرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم في كثير من البلاد الإسلامية .[1]

٥- اللمس باليد :

ورد اللمس باليد بلفظه في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ . الأنعام .

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن أهل الكفر والضلال وبيان عنادهم ومكابرتهم ورفضهم للوحي وللرسالة مهما كانت براهينها ساطعة ناصعة ؛ لأنهم من البداية معرضون مستهزئون غير آبهين بعبر التاريخ حين أهلك من كان قبلهم من المكذبين .

ولهذا فإن القرآن الكريم يعزى محمدا صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة حتى لا تذهب نفسه عليهم حسرات ، فلو أن القرآن نزل مجسما في صورة كتاب مكتوب فلمسوه بأيديهم ولم يقتصر بهم على الرؤية لئلا يقولوا سكرت أبصارنا ؛[2] فإنهم سيقولون : إن ما نراه وما نلمسه ليس حقيقة بل هو سحر مبين . وفائدة التعبير ب(لمسوه بأيديهم . . . الخ) هو (تحقيق القراءة على قرب حتى يقرأوه وهو في أيديهم لا بعيدا عنهم) .[3]

إننا نعرف أن اليد حاسة اللمس ، وهي لا تلمس المجردات والمعنويات بل تلمس المحسوس المجسم ، ولذلك فإن القرآن الكريم يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه كمن يعطي المرآة لصاحب الوجه القبيح ليرى نفسه ويخجل منها . وقريب من ذلك قوله تعالى في سورة الحج لمن يذيقه يوم القيامة عذاب الحريق : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾ . الحج .

وجدير بالذكر أن موقف الكفار والمعاندين كما قلنا هو الرفض لمجرد الرفض ولو أطاعهم الرسول فيما طلبوا ما آمنوا : فإن سورة الإسراء تحكي جانبا من هذا العناد الصريح القبيح : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ

---

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٥٠٦

(٢) الكشاف : ٢/ ٦

(٣) الانتصاف للإمام أحمد بن المنير الاسكندري : حاشية على الكشاف : ٢/ ٦

وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ سورة الإسراء.

إنهم كما يقول الزمخشري: ما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا هذا سحر مبين، وهم قد أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن، وأنكروا سائر الآيات، وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم، وشق القمر أعظم من شق الأرض، ونبع الماء من بين أصابعه أعظم من نبع الماء من الحجر.[(١)]

وإن كتب السيرة لتحكي أن ابن عمة الرسول صلى الله عليه وسلم قالت له: يا محمد، فوالله لا أؤمن بك حتي تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ومعك كتاب يشهد لك فقرأته بعيني ولمسته بيدي... وأيم الله لو فعلت ما ظننت أني بعد ذلك أصدقك.[(٢)]

٦- الكتابة باليد:

وردت الكتابة باليد صريحة في سورة البقرة، ووردت بلفظ الخط باليمين في سورة العنكبوت، والموقفان مختلفان طبقا لسياق الآيات وطبيعة الموضوع وتفصيل ذلك على النحو التالي:

أ- قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾. البقرة.

وردت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن بني إسرائيل وما يقوم به كبراؤهم وأحبارهم من تبديل وتحريف في كتبهم... وتتراوح الروايات حول طبيعة هذا التبديل؛ فهذا السيوطي يقصر التبديل والتحريف أو المحو على أوصاف الرسول محمد التي وردت في التوراة وهي أنه صلى الله عليه (أكحل. أعين. ربعة. جعد الشعر. حسن الوجه)[(٣)]

---

(١) الكشاف: ٢/ ٦٩٤، والبحر المحيط: ٦/ ٨٠

(٢) السيرة النبوية لإبن هشام: ١/ ٦٠٩، دار الفكر، القاهرة.

(٣) أسباب النزول للسيوطي.

لقد خاف هؤلاء على أصحابهم من أتباع محمد فيذهب ملكهم وتدول دولتهم، ولهذا محوا هذه الصفات من كتبهم واستبدلوا بها صفات أخرى للرسول كتبوها بأيديهم.

بينما يوسع أبو حيان الأندلسي هذا التحريف ويذهب إلى الحد الذي لم يكتفوا فيه بالتحريف. بل كتبوا كتابا بأيديهم حللوا فيه ما اختاروا وحرموا ما اختاروا وقالوا هذا من عند الله)، كل ذلك تضليلا للأميين منهم واشتراء لرضا رؤسائهم، ولبئس الثمن ويا لخسارة الكسب، إن الويل لهم مرتين، مرة بما كتبت أيديهم وويل آخر بما كسبوا.

والقرآن هنا يعرض صورة التحريف والتبديل مجسمة شاهدة عليهم ناطقة بقبح صنيعهم (يكتبون الكتاب بأيديهم).

والدلالة القرآنية لتلك الحركة: بيان إصرارهم وتسجيل ما ارتكبوه من تضليل لجموع الناس عن أوصاف الرسول وعن الأحكام السماوية ـ ويلتفت الزمخشري هنا إلى سر جمال التعبير بالكتابة بأيديهم وهو أنه من مجاز التأكيد، كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبته بيمينك هذه[1]، فكأن هذا اعتراف خطي بجريمة التزوير والتحريف تستحق الويل ثم الويل.

ب ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾. العنكبوت

تواجه هذه الآية الكافرين الجاحدين بالقرآن وخاصة من أهل الكتاب الذين يعرفون من صفات محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب (ما كنت تتلوا... ولا تخطه بيمينك) تواجههم بالدليل الساطع على أن هذا الكتاب من عند الله وليس من صنع محمد، إذ إنه معروف بين ظهرانيهم وفي كتبهم بعدم القراءة والكتابة.

وفائدة النص على أن الكتابة باليمين ـ بيمينك ـ كما يقول الزمخشري ـ هو أن اليمين هي الجارحة التي يزاول بها الخط، والنص عليها زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتبا ـ ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات: رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه؛ كان أشد لإثباتك أنه تولى كِتْبَتَهُ. فكذلك النفي[2] فادعاؤهم أن الكتاب من عند محمد هو ادعاء كاذب.

ولقد كان لهؤلاء الذين سماهم القرآن ـ المبطلون ـ بعض العذر لو كان محمد يتلو قبل ذلك كتابا أو يخط بيمينه سطرا، أما والأمر عكس ذلك، وبراهين القرآن وبلاغته

---

(٢) الكشاف: ١/ ١٥٨

(٣) الكشاف: ٣/ ٤٥٨، والكتبة (بكسر الكاف): اكتتابك كتابا تنسخه (لسان العرب: كتب).

واضحة تثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ؛ فلا وجه للشبهة ولا موجب للريب ـ ولذلك أعقبت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ . العنكبوت

٧ـ الأخذ باليد والإشارة بها :

أ ـ ورد الأخذ باليد في قوله تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ . سورة ص

والسياق هو ابتلاء الله لنبيه أيوب عليه السلام ـ يذكر به محمدا صلى الله عليه والسلام ، كما يذكره بقصص الأنبياء السابقين ، وصبرهم على ما ابتلوا به حتى يثبت قلبه وقلوب الأمة ، ولكي تقوى ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده وخذلان الباطل وأهله ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ . . ﴿١٢٠﴾ ﴾ هود . [1]

هذا أيوب المبتلى يصبر على بلائه الجسدي ويستنجد بربه ويناجيه ﴿ . . . أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ سورة ص ، فيستجيب الله دعاءه ويمن عليه بالشفاء حين ينفذ أمر الله له بأن يركض برجله إلى نبع الماء الطاهر الذي أشار إليه (هذا مغتسل بارد وشراب) اغتسل فبرئ جسده من الظاهر ، وشرب فبرئ من الداخل .

ولكنه كان في أثناء المرض قد حلف ليضربن زوجته مائة ضربة لسبب جرى منها رغم أنها كانت له محبة وعلى بلائه صابرة . . . . فكان الخلاص من هذا اليمين هو أمر الله تعالى له (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ) .

والضغث : حزمة من النبات (حشيش أو ريحان أو غير ذلك) حلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها لخدمتها إياه ورضاه عنها ، وهذه رخصة باقية . [2]

وموضع الحركة هنا (وخذ بيدك ضغثا) فإن النص على أن الأخذ باليد مع أنه لا يكون إلا بها ، إشارة إلى أن أيوب عليه السلام قد برئ تماما مما أصابه وأصبح قادرا على الحركة (الركض) والأخذ باليد بعد مرض استمر معه ـ كما يقول المفسرون ـ ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتى مله العالم ولم تصبر عليه إلا امرأته . [3]

---

(١) انظر : مباحث في علوم القرآن . مناع القطان ٣/ ٣٠٧ ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت

(٢) الكشاف ٤/ ٩٨ ، والبحر المحيط ٧/ ٤٠١

(٣) النهر الماد من البحر ٧/ ٣٩٩

كما ينقل هذا التعبير (خذ بيدك) إلينا صورة أيوب عليه السلام بعد مرور آلاف السنين فنراها مجسمة أمامنا وهو يتناول بيده تلك الحزمة اللينة ويضرب بها زوجته ضربا خفيفا يبرئه من الحنث فى قسمه وتلك طريقة القرآن في التعبير والتصوير .

ب- أما الإشارة باليد فقد وردت في موضعين هما :

- قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ . مريم

- وقوله تعالى : ﴿ ... قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا . . ﴾ آل عمران

وقد وردت الآية الأولى في سياق الحديث عن قصة مريم وعيسى عليهما السلام وكيف أتت به قومها تحمله ، وما دار من حديث قومها حول طريقة حملها واتهامهم إياها بالزنا وتقريعهم إياها على سوء فعلتها ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ . وعند ذلك أشارت بيدها إليه لأنها - كانت صائمة عن الكلام بأمر ربها وفي صومها عن الكلام منع لجواب من يشافهها ، كما أنها إذا امتنعت عن الكلام كفاها ولدها الجواب فيكون كلامه أقوى في المعجزة وأردع لهم عن الخوض في أمرها بدليل أنها لما اضطرت إلى الكلام أشارت إليه فأنطقه الله تعالى بما قال .[1]

وحين أشارت إليه غضبوا وقالوا : لسخريتها بنا أشد علينا من زناها ، ولكن الله أظهر براءتها حين رد عليهم عيسى وهو في المهد ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . . . . إلى . . . . وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ .

والإشارة باليد إحدى وسائل البيان السبعة التي ذكرها الشيرازي في اللمع وهي البيان بالقول ومفهوم القول ، والعقل ، والإقرار ، والإشارة والكتابة والقياس .[2]

وتشير بعض البحوث إلى أن صوم مريم عليها السلام عن الكلام واستخدامها الإشارة بدل الكلام لمدة محدودة ربما كان سببا في ظهور طائفة من القسس المسيحيين الصامتين الذين لم ينبسوا ببنت شفه لسنوات عديدة ، فتحدثوا بلغة الإشارة لأن الكلمة المنطوقة

---

(١) الروض الريان في أسئلة القرآن. الشيخ شرف الدين الحسين بن سليمان بن ريان تحقيق عبد الحليم السلفى ١/ ٢٣٧- بيشاور - باكستان.

(٢) اللمع في أصول الفقه - أبو إسحاق الشيرازي : ٥٣ " دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٥ .

كانت خطيئة[1] كما تستعمل الإشارة بدل الكلام كلغة للتحاور بين القبائل الاسترالية المختلفة اللغات أو عند ما يكون الكلام محظورا وفي بعض القبائل الاسترالية لا يسمح للمرأة التي دفنت زوجها حديثا باستعمال الكلمات كما لا يسمح بالشيء نفسه للشباب المقبلين على مرحلة الرجولة.[2]

وقد ذهب البعض إلى أن الإنسانية كلها قد ظلت صامتة لا تتكلم إلا بالإشارة، وأن التعبيرات اللغوية التي بقيت على شكل صور وإشارات في كثير من الكتابات القديمة، ليست إلا بقايا من عصور التفاهم بالإشارة. فالكتابة الفرعونية المصرية والكتابة السومرية التصويرية في العراق القديم، والهيروغليفية الحيثية في آسيا الصغرى وغيرها تعتمد على رسم الإشارات التي كان يتفاهم بها الناس قديما.[3]

استعمال الإشارة بدل الكلام لغة معروفة، ولها أصولها الدينية والاجتماعية، لكن الأسلوب القرآني يستخدمها في آية مريم للتعبير عما كانت تعانيه السيدة مريم من اضطراب وخجل نتيجة المواجهة الصعبة بينها وبين قومها، وكانت الإشارة باليد إلى الوليد المبارك مخرجا من تلك الأزمة النفسية، وكانت المعجزة الإلهية في رد عيسى عليهم لإظهار براءتها ولإثبات نبوته.

ـ والموضع الثاني لاستخدام الإشارة في القرآن الكريم ورد في سياق الحديث عن دعاء زكرياء عليه السلام لربه أن يهبه الذرية الطيبة واستجابة الله لهذا الدعاء، وبشارة الملائكة له بيحيى عليه السلام وتعجب زكريا من ذلك لأنه بلغ من الكبر عتيا ولأن امرأته عاقر، ولكنها إرادة الله، ولكن زكريا لا يكاد يصدق ومن ثم يطلب من ربه برهانا ودليلا وآية على صدق هذه البشارة الملائكية.[4]

فتكون الآية على ذلك أن الله يمنع لسانه عن كلام الناس ثلاثة أيام بلياليها ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ آل عمران: ٤١ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴿١٠﴾﴾ مريم.

---

(١) أصوات وإشارات: ١٣ ـ كوندراتوف ـ ترجمة ـ إدوار يوحنا ـ العراق

(٢) السابق: ١٢

(٣) اللسان والإنسان. مدخل إلى معرفة اللغة د. حسن ظاظا ص: ٢٢ . ط : المصري الإسكندرية. توزيع دار المعارف ١٩٧١ . وانظر كذلك: الكلمة. دراسة لغوية ومعجمية فصل: رمزية الكلمة ص: ١١١ للدكتور حلمي خليل، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب- فرع الاسكندرية ١٩٨٠ .

(٤) هذا هو ظاهر السياق ولكن للمفسرين في ذلك تأويلات كثيرة.

إن ذكر (أيام) فى سورة آل عمران وذكر (ليال) في سورة مريم يدل على أنه (استمر عليه المنع من كلام الناس والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام بلياليها) . [1]

وأكثر العلماء على أن الصمت إنما كان عن الكلام مع الناس، ولكنه كان يتكلم فقط بذكر الله وشكره فإذا كلمه الناس رد بالرمز - إلا رمزا - وقد اختلف العلماء في تفسير الرمز أبتحريك الشفتين أم بالإشارة باليد أو الرأس أم بهما معا . [2]

وقد كان حديث العلماء عن نوع الاستثناء هنا (إلا رمزا) أمتصل هو أم منقطع مبنيا على الخلاف حول الإشارة، أداخلة في الكلام أم لا؟ على الرغم من أن الجاحظ والشيرازي وغيرهما قد اعتبروها من وجوه البيان قال بعض العلماء هو استثناء منقطع إذ الرمز لا يدخل تحت التكليم .

وقال آخرون : إن الكلام يطلق في اللغة على الإشارة الدالة على ما في نفس المشير، فيكون الاستثناء متصلا وأيدوا كون الإشارة كلاما بإنشاد النحويين .

أرادتْ كلاما فاتَّقَتْ منْ رقيبها فلم يك إلا وَمْؤُها بالحواجب [3]

على أن علماء السلوك الإشَاري قد اعتبروا أن حركة اليد وهيئتها تملك نظاما دلاليا يتواصل به الناس وأنها تستطيع أن تنطق - إذا صح التعبير - بعشرات المعانى مثل النداء والطلب والقبول والرفض والتهديد والوعيد والمصافحة عند اللقاء والتوديع عند الفراق . [4]

---

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ٣٨٠

(٢) انظر في ذلك: البحر المحيط ٢/ ٤٥٢ - ٤٥٣ .

(٣) السابق: ٢/ ٤٥٢

(٤) الإشارات الجسمية: ٧٦. ومن الطريف في هذا الباب أن الدكتورة فاطمة محجوب وهي تحاول تطبيق مبادئ (علم الكينات) على الإنسان المصري توصلت إلى حركات عجيبة ودلالات أعجب واستعانت بالرسوم التوضحية وفن (الكاريكاتور) على ذلك.

ويضيق المقام عن سرد كل ما توصلت إليه ونكتفي منها بأن الحركة التي تعنى (انتظر قليلا) تضم فيها أطراف الأصابع فتصبح اليد في شكل (الكمثرى) .

ووضع طرف الإبهام فوق الطرف الداخلي للسبابة مع انبساط باقي الأصابع تفيد التهديد والوعيد(الويل لك) (إن ما وَرّيْتَك)

ولا شك أن أمر الله لزكريا عليه السلام ألا يكلم الناس إلا رمزا يتسع الرمز فيه للتعبير عن كل متطلبات الحياة الضرورية لزكريا في هذه الأيام الثلاثة. دراسات في علم اللغة فصل (علم اللغة وعلم الكينات) ١٥٩ - ١٨٥ .

٨ - حركة اليد مع الماء:

ارتبطت حركة اليد مع الماء في ثلاثة مواضع، موضع منها في الوضوء وهو ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ. . .﴾ المائدة: ٦

وليس ذكر الأيدي هنا داخلا في حركة اليد حركة إشارية أو بلاغية ولكنها تختص بحكم شرعي وهو استعمال الماء في الوضوء. وغسل اليدين إلى المرفقين من واجبات الوضوء.

- والموضعان الآخران لحركة اليد مع الماء هما:

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ . .﴾ الرعد: ١٤

- وقوله تعالى: ﴿. . . إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ . .﴾. البقرة: ٢٤٩

وسياق الآية الأولى هو المقابلة بين المؤمنين والمشركين، بين دعوة الحق ودعوة الباطل، فدعوة الحق هي دعاء الله وحده، وإضافة الدعوة إلي الحق تعني أنها ملابسة للحق لكونه حقيقا بأن يوجه إليه الدعاء لما في دعوته من النفع والجدوى، بخلاف دعوة الباطل التي لا تجدي نفعا[1]. لأنها دعوة جمادات لا تحس ولا تعي فأنى يستجيبون.

ثم يأتي التشبيه (كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه) ليوضح تلك الصورة الساخرة لمن يدعون من دون الله. إنهم لا يستجيبون لهم بشيء من طلبهم إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم.

- وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشرا أصابعه، فلم تلق كفاه منه شيئا ولم يبلغ طَلِبَتَهُ من شربه.[2]

وحركة بسط الكف مع نشر الأصابع للحصول على الماء تعطي دلالة مؤداها أنه لا جدوى من الحصول على الماء فالمحاولة فاشلة - وهنا ملمح قرآني لطيف وهو أن هذا الذي يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه يحيط به جو مليء بالبرق والرعد والسحاب الثقال والأمطار التي تسيل بها الأودية ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا

---

(١) الكشاف: ٢ / ٥٢٠

(٢) السابق: ٢ / ٥٢١

وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ الرعد، ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾. الرعد: ١٧ ومع ذلك فلن يحصل من هذا الماء الكثير على شربة واحدة كما لن يحصل من تلك الآلهة على أي استجابة. وهذا الأسلوب القرآني الفريد يوحي بالسخرية من هؤلاء الذين ألغوا عقولهم واتجهوا إلى الأصنام يعبدونها.. كما إن محاولة الحصول على الماء والإمساك به باليد ثم فشل هذه المحاولة تذكرنا بالمحاولات المبكرة للطفل الوليد يحاول الإمساك بالأشياء التي تتحرك أمامه، كما تستحضر أمامنا صورة هذا الشاعر البائس من وصل محبوبته في هذا البيت المؤثر:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض ... على الماء خانته فروج الأصابع

أما سياق الآية الثانية (... إلا من اغترف غرفة بيده..) فهو ابتلاء الله لبني إسرائيل واختبار مدى صبرهم على الشدائد وطاعتهم لأوامر قوادهم فعندما سار بهم طالوت لقتال جالوت وعرض لهم نهر في الطريق وهم بحاجة إلى الماء حذرهم من الشرب منه (فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني ...) ثم سمح للمضطر أن يغرف غرفة واحدة بيده (... إلا من اغترف غرفة بيده...).

والمغزى البلاغي هنا هو اختبار طاعة الجنود وقدرتهم على كبح رغباتهم وضبط شهواتهم فالماء يجري في النهر ولكنه غير مسموح لهم إلا بغرفة واحدة.

إن التربية العسكرية في الجيوش المعاصرة تحرم على الجنود ـ أحيانا ـ بعض الأشياء المباحة وربما الضرورية للحياة كي تعودهم الخشونة والقدرة على مواجهة الصعاب وقت حدوثها.

٩- بسط اليد وقبضها وغلها وكفها:

أولا: في مجال البطش والأذى.

ورد بسط اليد وقبضها وغلها وكفها لتصوير البطش والأذى في عدة مواضع في القرآن الكريم نذكر منها:

أ- قوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾. المائدة

بسط اليد بالقتل هنا كناية عن البدء في القتل والشروع فيه، وهي حركة تستخدم لدى بعض الشعوب للتهديد والوعيد بوضع طرف الإبهام فوق السبابة مع بسط باقي الأصابع كما أشرنا منذ قليل وقد ساعدت اللغة هنا على إبراز التقابل بين الخير والشر.

فاستعمال (بسطت) في جانب قابيل بصيغة الماضي إشارة إلى عزمه على القتل وتحقق الوقوع، كما أن تقديم الجار والمجرور (إليّ) على المفعول به (يدك) يدل على أنه المقصود بالقتل لا غيره. ثم إن إضافة اليد إلى كاف المخاطب تفيد التخصيص. . . بينما استعمال] ما أنا بباسط يدي إليك [في جانب هابيل بتقديم ضمير المتكلم (أنا) بعد النفي (ما أنا) (ليفيد أنه لا يفعل ما يكسب به هذا الوصف الشنيع، ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي)[1] وتأخير الجار والمجرور (إليك) عن المفعول لاستبعاد حصول القتل من جانبه على عكس تقديم الجار والمجرور في جانب أخيه قابيل.

ب ـ في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ . . . ﴿١١﴾﴾. المائدة

تأتي الآية في مقام تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم، إذ أراد قوم من الكفار أن ينالوا المسلمين بالأذى فمنعهم الله، ومن ثم يأمر الله المسلمين بتقواه والتوكل عليه ﴿ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وحركة بسط الأيدي هنا كناية عن البطش، وحركة كف الأيدي كناية عن المنع والحفظ، لكن التعبير القرآني بما يحمل من حركة في البسط وحركة في الكف أكثر حيوية من التعبير الآخر، لأن التعبير القرآني يتبع طريقة التصوير والحركة، تلك الطريقة التي تطلق الشحنة الكامنة في التعبير، كما لو كان هذا التعبير يطلق للمرة الأولى مصاحبا للواقعة الحسية التي يعبر عنها مبرزا لها في صورتها الحية المتحركة.[2] ثم إن الوصية بالتقوى والتوكل على الله هنا مناسبة لشكر النعمة التي أسداها الله إليهم، كما أن الختام بـ (المؤمنون) يتطابق مع البدء بنداء المؤمنين ـ فكأن الإيمان الذي يحيط بهم من البدء إلى النهاية كان من أسباب كف الأذى عنهم.

ج ـ في قوله تعالى: ﴿ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٢﴾﴾. الممتحنة

---

(١) انظر: الدر اللقيط من البحر المحيط للإمام تاج الدين الحنفي ٣/ ٤٦٢ هامش على البحر المحيط.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٧٦، ويراجع ذلك بتوسع في فصل (طريقة القرآن) من كتاب (التصوير الفني في القرآن) وفي فصل (القيم التعبيرية) من كتاب (النقد الأدبي: أصوله ومناهجه) وكلاهما لسيد قطب . دار الشروق.

في الآية تحذير للمؤمنين من موالاة أعداء الله أو الإسرار إليهم بالمودة لأنهم رغم موالاة المؤمنين لهم ومودتهم إياهم، لو وجدوا أي فرصة للنيل منهم بطشا باليد أو قذفا باللسان فلن يتوانوا عن ذلك.

وهنا يشترك بسط اليد مع بسط اللسان للدلالة على شدة العداء وسوء النية ـ حيث لن ينفع المؤمنين رحم ولا ولد.

إن التعبير ببسط الأيدي يعاونها بسط الألسنة بالسوء حركة تجسم هذا العداء وتنقله من عالم النيات والضمائر إلى عالم المشاهدة والحضور حتى يكون بمثابة الدليل على خبث الطوية لدى هؤلاء الأعداء، وعند ذلك يستجيب المؤمنون لنهي القرآن الكريم عن اتخاذ أعداء الله أولياء أو الإلقاء إليهم بالمودة.

ويرى صاحب التحرير والتنوير أن بسط الأيدي والألسنة بالسوء هنا مستعار للإكثار، لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل وتشبيه ضده وهو القبض بضد ذلك، فبسط اليد، الإكثار من عملها، والمراد به هنا عمل اليد الذي يضر مثل الضرب والتهديد والطعن وعمل اللسان الذي يؤذي مثل الشتم والسخرية والتهكم بدليل قوله تعالى ﴿ بالسوء ﴾.[1]

والأقرب إلى الفهم أن يكون بسط الأيدى هنا كناية عن القتل وبسط الألسنة كناية عن الشتم والسب لأن الكثرة التي يشير إليها ابن عاشور مفهومة ضمنا من صيغة المضارع ـ ويبسطوا ـ بما تحمل من دلالات التجدد والاستمرار.

د ـ وفي قوله تعالى: ﴿ ... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ... ﴿٩٣﴾﴾. الأنعام

تصوير لموقف الظالمين وقت معالجة سكرات الموت والملائكة مسلطون عليهم يعجلون في إخراج أرواحهم من أبدانهم بشدة، فيبسطون إليهم أيديهم قائلين، هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم . . . يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى المدين ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له، أخرج إليَّ ما عليك الساعة ولا أريم مكانى حتى أنزعه من أحداقك.[2]

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٧/ ١٤٠ للطاهر بن عاشور ط: الدار التونسية للنشر ١٩٨٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٤٦ وانظر كذلك: البلاغة القرآنية د. عبدالله هنداوي ٦٢ ط الأمانة مصر ١٩٩٥

ولو أخذنا شكل حركة يد الدائن وبسطها حين مطالبة الدائن مدينه بما عليه لوجدنا أن الدائن عند مطالبته يبسط يده للمدين قائلا ، أعطنى . أما أخذت مني؟ وبذلك يكون تفسير الزمخشري (أنهم يفعلون بهم فعل الغريم . . .) أقرب إلى التفسير الحركي كما أقره علماء السلوك الإشاري .

هـ ـ ويأتي كف الأيدي بمعنى الامتناع عن القتال مرة في سياق التعجب من فريق من المؤمنين أمروا في البداية بالعفو عمن ظلمهم وأن يتوجهوا للعبادة لأن الأمر بالقتال لم يأت بعد ، وقد كانوا متشوقين للقتال مستعجلين للأمر به ـ فلما أذن لهم بالقتال تقاعسوا وتخاذلوا ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ... ﴿٧٧﴾ ﴾ النساء ، والأمر بكف الأيدي هنا كناية عن المنع والغرض البلاغي هنا هو إظهار التقابل بين الموقفين لأنهم كانوا حريصين على القتال حين منعوا منه ، فلما سمح لهم به رغبوا عنه وكرهوه .[1]

ـ ويرد الكف مرة أخرى في سياق تحذير الرسول والمؤمنين من فريق من المنافقين يريدون الجمع بين الأمنين ، الأمن مع الرسول وصحبه والأمن مع الكافرين ـ هؤلاء يجب قتالهم وتعقبهم حتى يعتزلوا المسلمين ويلقوا إليهم بالسلام ويكفوا أيديهم عن قتال المؤمنين ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾ النساء .

فكف الأيدي في هاتين الآيتين كناية عن الإمساك عن القتال كما كان بسطها في قصة ولدي آدم كناية عن القتل .

---

(١) يشير الآلوسي إلى أن مدار التعجب هنا ناتج من التباين بين مدلولي المعطوفين: المعطوف عليه (كفوا أيديكم) والمعطوف (فلما كتب عليهم القتال) . راجع روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ٥/ ٨٥، ط دار التراث ـ بيروت .

ثانيا: في مجال الجود والبخل...

رأينا أن بسط الأيدي قد استعمل كناية عن القتل والبطش والأذى وأن كف الأيدي كان كناية عن الامتناع عن ذلك، وهنا نجد صورا أخرى لبسط الأيدي وقبضها وغلها ولكن في مجال الإنفاق أو البخل.

وبداية نثبت مع الزمخشري أن غل الأيدي وبسطها مجاز عن البخل والجود من غير أن يقصد المتكلم حقيقة الغل والبسط إذ لا فرق بين الحقيقة والمجاز هنا لأن كليهما متعاقبان على حقيقة واحدة، حتى إنه يستعمل في مَلك لا يعطي عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أَعطَى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا ما أبسط يده بالنوال، ويقال بسط اليأس كفيه في صدري، فجعلت لليأس الذي هو من المعانى لا الأعيان كفين.[1]

ومن أجل ذلك ينبه الزمخشري إلى أن ـ من لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر حجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبثت به.

ـ وقد وردت في القرآن الكريم عدة آيات للتعبير عن البخل والجود ومنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ... ﴿٦٤﴾﴾ المائدة، غل اليد هنا كناية عن البخل وبسطها كناية عن الجود.

وصفت اليهود رب العزة بالبخل وعبروا عن ذلك في جلافة وغلظة بصورة شائهة ـ حاشا لله ولكل مسلم أن يتصف بها ـ وهي غل اليد أي ربطها أو شدها إلى العنق، وكبرت كلمة تخرج من أفواههم..

فكان الرد بالدعاء عليهم بالبخل والنكد والطرد من رحمة الله ﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا... ﴾ ومن ثم كانت يهود أبخل خلق الله وأنكدهم.

والصورة المقابلة لهذا الادعاء الوقح هي إثبات الجود والسخاء والكرم لله سبحانه بقوله تعالى ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ إنها ليست يدا واحدة بل يدين، وتساعد (بل) التي تفيد الإضراب عما سبق وإثبات ما بعدها على تثبيت صفة البسط والجود لله سبحانه وتعالى. والتعبير باسم المفعول (مبسوطتان) يؤيد دوام تلك الصفة وثباتها لله عز وجل.

---

(١) الكشاف: ١/ ٦٥٥

٢ـ ويشترك المنافقون والمنافقات مع اليهود في الاتصاف بصفة البخل بالإضافة إلى صفات قبيحة أخرى وردت في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ التوبة

والقرآن الكريم حين يصور بالحركة قبض اليد وعدم بسطها بأي خير بدلا من وصفهم صراحة بالبخل أو الشح يثير سخرية الناس منهم حين يرونهم مجسمين أمامهم قابضين أيديهم . . . إن الكناية هنا أبلغ من التصريح.

ولقد استخدم الشاعر العربي قبض اليد للتعبير عن الحرص والبخل إذ يقول:

وفي قبض كف الطفل عند ولاده　　دليل على التقتير في طبع الحى.

وفي بسطها عند الممات إشارة　　ألا فاشهدوا إني خرجت بلا شي. [١]

ـ وفي مجال الغل والبسط يأتي التعبير القرآني ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ الإسراء، فيعبر عن شدة البخل بغل الأيدي إلى الأعناق وعن الإسراف والتبذير ببسط اليد كل البسط.. وكلاهما (البخل والإسراف) مذموم في شريعة الإسلام، لأنها شريعة التوسط والاعتدال ويصور أبو حيان بلاغة الحركة اليدوية هنا بأنها استعارة المحسوس للمعقول وذلك لأن البخل معنى قائم بالإنسان يمنعه من التصرف في ماله فاستعير له الغل الذي هو ضم اليد إلى العنق فامتنع من تصريف يده وإجالتها حيث تريد، وذكر اليد لأن بها الأخذ والعطاء، واستعير بسط اليد لإذهاب المال، وذلك أن قبض اليد يحبس ما فيها وبسطها يذهب ما فيها وطابق في الإستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى لأن جَعْلَ اليد مغلولة هو قبضها وقد طابق بينهما أبو تمام بقوله:

تعوّد بسط الكف حتى لو أنه　　ثناها لقبض لم تجبه أنامله[٢]

إن تصوير البخيل مغلول اليد ومشدودها إلى العنق وتصوير المسرف ناشرا يده لا شيء فيها صورة لافتة للنظر مثيرة للسخرية منفرة لمن يتخيلها أو يراها، لأنها تبعد عن

---

(١) من يتأمل الحركة اليدوية للمصريين عند حديثهم عن رجل بخيل يجدهم يشيرون إلي ذلك بقبض اليد قبضا شديدا قائلين إنه (جِلْدَةْ وَمَاسِكْ علىَ الدنيا كدَهْ)

(٢) البحر المحيط: ٦/ ٣١

السلوك السوي للبشر . . . ويزيد في التنفير صورة ثالثة تعتبر نتيجة للمنظر السابق وهي تصوير المقتر والمسرف بالقعيد المقعد إلى الأرض قعْدَةَ الملوم المحسور كلاهما فقد شيئا أقعده عن الحركة، فقد البخيل كرامته بين البشر وفقد المسرف ماله وكل ما يملك، فالأول ملوم من جميع الناس :

إن البخيل مَلومٌ حيث كان ول   كنَّ الجواد على علاَّته هَرِمُ .

والثاني فقد ماله فصار حسيرا " عاجزا كالبعير المحسور الذي ساقه صاحبه حتى أعياه " .[1]

وفى (ملوما محسورا) ضرب آخر من بلاغة القرآن هو اللف والنشر[2] فقد لفهما في (فتقعد) ثم نشرهما فأرجع المحسور إلى المبذر المعبر عنه بـ (تبسطها كل البسط) وأرجع الملوم إلى البخيل الممسك المعبر منه (تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) وهو لون بديعي يكسب الأسلوب جمالا حركيا يتسق مع حركة الغل والبسط دون تعمل أو تكلف .

١٠ - قَطْعُ اليدِ وتَبُّهَا والضربُ عليها والسقوطُ فيها :

أ- ورد قطع الأيدي أو تقطيعها في سورة يوسف عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ... ﴿٣١﴾﴾. يوسف

وحركة تقطيع الأيدي هنا تعني أنهن جَرَحْنَهَا بالسكاكين التي أعطيت لهن للأكل بها وهن متكئات في مجلس امرأة العزيز، ولا يعقل القطع بمعنى البتر. بل هو (كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي، والتضعيف للتكثير، فالجرح كأنه وقع مرارا في اليد الواحدة .[3]

إن الإنسان تجرح يده بالسكين إذا كان ذاهلا عما في يده بسبب تفكير عميق أو بسبب منظر مفاجئ أدهشه فسلب لبه ونسي ما في يده .

وهذا ما حدث لنسوة المدينة حينما طلع عليهن يوسف عليه السلام بجماله الباهر الخلاب فشُدهْنَ به وَدُهشْنَ وقلن (حاشا لله) حاشا يوسف أن يقارف ما رمته به امرأة العزيز (ما هذا بشرا) وتلك أفعال البشر .

---

(١) القاموس المحيط مادة . (حسر)

(٢) تعريفه : ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين؛ ثقة بأن السامع يرده إليه - انظر في ذلك: بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص: ٢٩ط : مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٩٧م.

(٣) تفسير النهر الماد من البحر المحيط ٥/ ٣٠١

إن التصوير القرآني الواقعي لهذه الحادثة أقوى من أي خيال، إذ أنه يترك خيال المستمع ينطلق مع تعبير (وقطعن أيديهن) ليرى الصورة مجسدة أمامه حيث هؤلاء النسوة ذاهلات عما في أيديهن بسبب هذا الجمال النوراني .

ـ ومن القطع بمعنى البتر قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾. المائدة

إن صورة مقطوع اليد بسبب السرقة صورة مخزية ومرعبة ورادعة لكل من تسول له نفسه الإقدام على هذه الجريمة النكراء وتلك هي حكمة إقامة الحدود إنها زواجر تزجر من يفكر في السرقة حين يرى نهايته ماثلة أمامه فيمن قطعت يده بسبب السرقة . . .

ب ـ وتب اليدين بمعنى هلاكهما وضياعهما ورد في سورة المسد : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ دعاء على أبي لهب بتب يديه أي خسرانهما وهلاكهما (وأسند الهلاك إلى اليدين لأن العمل أكثر ما يكون بهما والهلاك في الحقيقة للنفس)[1] وجاءت (وتبّ) الثانية توكيداً لفاظيًّا للإشارة إلى أن الخسران قد تحقق وحدث بالفعل . . . وهذا الدعاء في أول السورة انتصار من الله لمحمد صلى الله عليه وسلام حين سخر منه أبو لهب قائلا (تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟) لقد ظن أبو لهب أنه حين جمع المال وعدده خالد في هذه الدنيا وقادر على إسكات صوت الحق ولكن السورة تسجل عليه الهلاك والخسران هو زوجته . . . ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد﴾ .

ج ـ والضرب على الأيدي وعلى البنان منها ترد صورته في قوله تعالى : ﴿ ... سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ الأنفال

وترد هذه الآية في سياق تعدد النعم التي أنعم الله بها على المسلمين في غزوة بدر وهي كثيرة ومنها تثبيت الملائكة للمؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين ، وهنا يستطيع المسلمون على قلة عددهم أن يضربوا الرءوس ـ فوق الأعناق ـ ويضربوا الأطراف (كل بنان) فتكون النتيجة إما قتل الكفار أو تعطيلهم عن قتال المسلمين بضرب أطرافهم . . وتطلق البنان على الأصابع ، وقد درج العرب في معاركهم على ذكر الضرب على البنان إشارة إلى شجاعتهم ـ يقول عنترة :

وكان فتى الهَيْجَاءِ يَحْمِي ذِمَارِهَا   ويضربُ عند الكرب كلَّ بنان .

---

(١) النهر الماد :٨/ ٥٢٤

ـ وكما أن هناك ضربا على الأيدي فهناك ضرب باليمين في قوله تعالى : ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين. . . ﴾ ﴿الصافات : ٩٣﴾ وذلك في سياق قصة إبراهيم عليه السلام مع الأصنام حين تسلل ليلا إلى تلك الآلهة المزعومة يسألها وهو يعلم أنها لن تجيب : ﴿ ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون ؟﴾ يستهزئ بها وبمن يعبدونها بهذا الاستفهام الإنكاري المتكرر ثم يتحول إليها مفرغا شحنة الغيظ المكتوم والسخرية اللاذعة حركة وعملا لا قولا (ضربا باليمين) فشفي نفسه من السقم [[1] ولنا أن نتصور مع الآيات سيدنا إبراهيم عليه السلام وقد أمسك الفأس بيمينه يهوي بها على تلك الأصنام تكسيرا وتحطيما وهي لا تملك لنفسها دفعا . . إنها حقا صورة مزرية لآلهة مزعومة ولقوم لا يعقلون . كما يوحي المصدر (ضربا باليمين) دون ذكر الفعل بسرعة الضرب وشدته وعزم الفتى إبراهيم على إحراج قومه ودمغ باطلهم بحجة عملية لا كلامية .

ثم إن اختيار (اليمين) للضرب يدل على قوته لأن اليمين أقوى من الشمال كما أنها تستخدم في السيطرة والقدرة كما قال تعالى : ﴿ . . . والسموات مطوات بيمينه . . . ﴾ .

وقول الشاعر :

أَلمْ أَكُ في يُمْنَى يديْك جَعَلْتَني فلا تجعلَنِّي بعدها في شمالكا . [2]

وفي مجال عاطفة الحب والوجد وإشفاق المحب من إهمال حبيبه وتساؤله عن منزلته في قلبه يأتي قول عبد الله بن الدمينة :

أَبيني أفي يُمْنَى يديك جَعَلْتني فأفرحَ أم صَيَّرْتني في شمَالك . [3]

وقد أوردَ الجرجاني في ذلكَ أيضًا قول الشماخ بن ضَرار يمدحَ عَرابة بن أوس الأنصاري :

إذا ما رَايَةٌ رُفعَتْ لمجد تَلَقَّاهَا عَرَابةُ باليمين . [4]

وعلق عليه بكلام يبين أن الجَماعة العرَبية تولي اليمين اهتماما كبيراً .

د ـ أما السقوط في اليد أو في الأيدي ، فقد ورد في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ . الأعراف

---

(١) في ظلال القرآن : ٥/ ٢٩٩٣

(٢) انظر بغية الإيضاح ، عبد المتعال الصعيدي ٣/ ١٢٨ ، وقد نسب البيت إلى الرماح بن ميادة .

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ص: ٩٠، تحقيق محمود شاكر ط . الخانجي ـ مصر . انظر كذلك معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ١/ ١٥٩ للعباسي ، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط المكتبة التجارية ـ مصر ١٩٧٤م

(٤) أسرار البلاغة للجرجاني ص: ٣٦١، تحقيق محمود شاكر ط دار المدني ـ جدة ومطبعة المدني بالقاهرة ١٩٩١م .

وذلـك للدلالـة على شدة ندم بني إسرائيل بعدما اكتشفوا أن العجل الذي اتخذوه إلها لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا . .

(وإن مـن عادة النادم أن يطأطئ رأسه ويضع ذقنه على يده معتمدا عليها ويصير على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه. فكأن اليد مسقوط فيها) . [١]

وقريـب مـن تلـك الهيئة ما أكده علماء السلوك الإشاري بأنه إذا اعتمد أحد على يده واضـعا خـده أو جبهـته عـلى كفـه فهـذا يعني الاستغراق في التفكير أو الندم وقد أثبتت الدراسـات النفسـية الحديـثة ارتـباط التعـبيرات الجسـمية بعواطـف الإنسـان ومشـاعره وانفعالاته وأن هذه التعبيرات تعد لغة عامة بين البشر .

عـلى أن الآيـة الكريمة تعتبر كناية عن الندم دون أن يكون هناك إسقاط شيء في اليد، فـإن في العربـية متسـعا للتعـبير عن مشاعر الحزن والندم بعبارات من مثل (عض الأنامل واليدين والسقوط في اليد وحرق الأسنان قائلين إنها كنايات عن الغيظ والحسرة) . [٢]

ويوضـح الزمخشري تلك الكناية عن اشتداد الحسرة والندم بأن من شأن من اشتد ندمه وحسـرته أن يعـض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها، ومن قرأها بالبناء للفاعل (سقط) فسـرها بـأن الـندم سقط في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم تشبيها لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى في العين . [٣]

١١- السلوك اليدوي في قصة موسى عليه السلام :

لا يدخـل في دائـرة اهتمامـنا هنا الحديث عن القصة في القرآن الكريم وأهدافها الدينية وتشـكيلها الفـني، فـذاك موضـوع آخـر، لكنني أود الإشارة هنا إلى أن السلوك الحركي الجسماني في قصة موسى عليه السلام شيء لافت للانتباه، فهو في نظري قد غلب الجانب الكلامي اللساني الجدلي في قصص الأنبياء الأخرى حيث يدور بين النبي وقومه محاورات حول العقيدة والبعث والحساب ـ ويطول البحث لو استعرضنا هذه المحاورات النبوية .

ـ الحـركة الجسمية إذن هي الغالبة على قصة موسى عليه السلام . وتلك الحركة منتشرة في آيات القصة الممتدة في سور كثيرة نذكر منها هذه النماذج :

١ـ فوكزه موسى فقضى عليه	القصص : ١٥
٢ـ أراد أن يبطش	القصص : ١٩

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. السمين الحلبي ٥/ ٤٦٣ ط ١ دار الكتب العلمية ـ بيروت

(٢) البحر المحيط ٦/ ٤٩٥

(٣) الكشاف ٢/ ١٦٠.

٣ـ فخرج منها خائفا يترقب	القصص : ٢١
٤ـ توجه تلقاء مدين	القصص : ٢٢
٥ـ ورد ماء مدين	القصص : ٢٣
٦ـ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل	القصص : ٢٤
٧ـ وسار بأهله	القصص : ٢٩
٨ـ وأن ألق عصاك . . ولى مدبرا	القصص : ٣١
٩ـ أسلك يدك في حبيبك	القصص : ٣٢
١٠ـ واضمم إليك جناحك	القصص : ٣٢
١١ـ أن ألق عصاك	الأعراف : ١١٧
١٢ـ وألق ما في يمينك	طه : ٦٩
١٣ـ وألق عصاك	النمل : ١٠
١٤ـ فألقى عصاه	الأعراف : ١٠٧
١٥ـ عصاي أتوكأ عليها وأهش بها	طه : ١٨
١٦ـ فاخلع نعليك	طه : ١٢
١٧ـ وأدخل يدك في جيبك	النمل : ١٢
١٨ـ ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه	الأعراف : ١٥٠
١٩ـ وخر موسى صعقا	الأعراف : ١٤٣
٢٠ـ أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر	طه : ٧٧
٢١ـ اضرب بعصاك الحجر	الأعراف : ١٦٠
٢٢ـ أخذ الألواح	الأعراف : ١٥٤

ولعل البعض يتساءل، هل لكثرة الحركة هنا علاقة بما ورد في القرآن الكريم من دعاء موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ طه

وطلبه الآخر ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ... ﴿٣٤﴾ ﴾ القصص. . . . . . وبمعنى أخر هل كان اعتماد موسى عليه السلام على الحركة الجسدية في دعوته أكثر من الحجج القولية والدعوة باللسان بسبب تلك العقدة في اللسان التي كثر كلام المفسرين حول طبيعتها وأسبابها ؟

وهل ظلت تلك العقدة مصاحبة له في دعوته، وهل كان هارون يقوم مقامه في المحاجة والمجادلة؟

والرأى عندي أولا: أن موسى عليه السلام وإن عانى قبل الرسالة من تلك العقدة، إلا أن الله استجاب دعاءه كله في بداية الرسالة بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ طه، قد أعطيت طَلِبَتَكَ وما سألته من شرح الصدر وتيسير الأمر وحل العقدة وجعل أخيك وزيرا...).[1]

وهذه الاستجابة إحدى المنن الكثيرة التي أنعم الله بها على موسى بدليل قوله تعالى عقب ذلك ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ ... ﴾ طه.

وثانيا: يقتضينا الإنصاف أن نقول إن كثرة الحركة لم تكن بسبب تلك العقدة، فقد زالت بإذن الله في بدء الرسالة.

وإن التعبير باسم التفضيل في قول موسى] وأخي هارون هو أفصح مني لسانا [لا ينفى فصاحة موسى ولا بيانه، لأن اسم التفضيل يدل على أن شيئين اشتراكا في صفة وزاد أحدهما على الآخر في هذه الصفة، وادعاء فرعون بأنه ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ الزخرف، هذا الادعاء ناجم من تكبره وتألهه. لأنه ما من نبي إلا قد أوتي من البيان ما يمكنه من عرض رسالته، غاية الأمر أن فصاحة موسى في حاجة إلى مؤازرة فصاحة هارون زيادة في التبليغ والتأثير، والغالب على الظن أن السر في كثرة الحركة في قصة موسى عنها في غيرها من قصص الأنبياء يرجع إلى أنه بعث إلى أشد الأقوام غلظة في الطباع وقسوة في المعاملة وجلافة في السلوك وهم بنو إسرائيل، وهؤلاء لا يجدي معهم طيب الكلام ولا رقة الأسلوب، بل الأجدى معهم الحركة والحركة العنيفة أحيانا من مثل ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه - يبطش - وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ ﴿ اضرب بعصاك الحجر... ﴾.

أ - إدخال اليد وسلكها وضمها وإخراجها ونزعها:

نأتي بعد ذلك إلى السلوك اليدوي في قصة موسى عليه السلام فنجد أن القرآن الكريم يستخدم التعبير الحركي لليد في (الإدخال والسلك والضم والإخراج والنزع) وكل هذه الحركات وردت في إثبات معجزة اليد البيضاء التي أعطاها الله لموسى تأييدا لدعوته مع معجزات كثيرة أخرى ذكر القرآن منها (تسع آيات) هي العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والحجر.

---

(١) البحر المحيط: ٦/ ٢٤٠

والآيات موضع هذه الحركة هي :ـ

١ـ ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦ ... ﴿١٢﴾ ﴾. النمل.

٢ـ ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ... ﴿٣٢﴾ ﴾. القصص.

٣ـ ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾. طه.

٤ـ ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾. الأعراف.

ونلاحظ أن القرآن الكريم عبر عن إدخال موسى عليه السلام يده إلى جيب قميصه مرة ب (وأدخل يدك) ومرة ب (اسلك يدك) وثالثة ب (واضمم يدك إلى جناحك).

وعبر عن إخراجها من جيب قميصه أربع مرات ثلاث منها ب(تخرج بيضاء) والرابعة بالنزع (ونزع يده فإذا هي بيضاء)

وهذا التنوع في التعبير يبين ثراء لغة القرآن وقدرتها على بيان المعنى الواحد بأكثر من لفظ وذلك يضيف لمسات فنية وجمالية على كل تعبير.

وفي كل هذه التعبيرات تدخل يد موسى في جيب قميصه بلونها الطبيعي الذي يميل إلى الأدمة وهي السمرة ولكنها تخرج بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس يعشى البصر.... بيضاء، للناظرين وهي لشدة بياضها العجيب الخارج عن العادة يجتمع الناس للنظر إليها... وبياضها (من غير سوء) احتراسا من توهم أن البياض من برص أو بهق وهنا تتحقق معجزة اليد.(١)

نحاول هنا قدر اجتهادنا تلمس بعض الأسرار البلاغية للتعبير عن حركة اليد بطرق مختلفة، ونشير هنا إلى أن السلك والإدخال بمعنى واحد كما تذكر المعاجم غير أن كلام الزمخشري في أساس البلاغة عن السلك يوحي بأنه أكثر لطفا وأشد خفاء من الإدخال، إذ يقول سلك الخيط في الإبرة ـ وسلك السنان في المطعون ـ وذهب في مسلك خفى ـ وهذا كلام خفي المسلك ودقيق المسلك.(٢)

وأما التعبير عن إدخال اليد بالضم في قوله تعالى: ﴿ واضمم يدك إلى جناحك... ﴾ فإنه يضيف لمسة بيانية يوضحها أبو حيان بقوله (الجناح حقيقة في الطائر ثم توسع فيه

---

(١) انظر البحر المحيط ٤/ ٣٥٨، والكشاف ٢/ ١٣٨

(٢) أساس البلاغة للزمخشري مادة (سلك) تحقيق: عبد الرحمن محمود.

فـأطلق عـلى الـيد وعـلى العضد وعلى جنب الرجل ـ أمره تعالى أن يضم يده إلى جناحه لـيقوى جأشـه ولتظهر له هذه الآية العظيمة في اليد والمراد بضم اليد إلى الجناح هنا ضمها إلى الجنـب تحـت العضد ولهذا قال تخرج ، فلو لم يكن دخول لم يكن خروج كما قال في آية أخرى ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج . . ﴾ . [(١)]

وهـذا يعـني أن اسـتخدام (اضـمم) مكان (أدخل) كان بغرض تثبيت موسى عليه السـلام بعـد أن رأى عصـاه تنقلب إلى حية تسعى أو تهتز كأنها جان إذ خاف واضطرب وحـاول اتقاءهـا بيده كما يفعل الخائف من الشيء ، فقيل له اضمم يدك تحت عضدك ثم أخرجها بيضاء تظهر لك معجزة أخرى .

التعـبير المتنوع إذن بالإدخال وبالسلك وبالضم مقصود في القرآن قصدا لبيان الحالات النفسـية الـتي اعـترت موسـى علـيه السـلام حـين رأى معجزة العصا تعقبها معجزة اليد البيضـاء .

ـ أمـا مـا ورد في سورة القصص من الجمع بين سلك اليد وضم الجناح في قوله تعالى : ﴿اسـلك يـدك في جيـبك تخـرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ فهـذا ضـم جـناح ولـيس كإدخال اليد في الجيب المعبر عنه في سورة طه ﴿ اضمم يدك إلى جـناحك تخـرج . . . ﴾ لأن مـا في سـورة القصص تعبير بضم الجناح عقب التعبير بسلك الـيد ، لأن موسـى هـنا عـندما سـلك يده وأخرحها ورآها بيضاء مشرقة ارتجف ثانية من رهبة الموقف وخاف هنا كما خاف أولا حين انقلبت العصا حية تسعى . . .

وعـند ذلـك جـاءه الأمـر الإلهـي ليزيد من ثباته وسكينته بأن يضم يديه إلى جنبه كما يضـم الطائـر جناحـيه إلى جنبيه دلالة على سكونه وطمأنينته (استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه) . [(٢)]

إن خفقـان قلـب الخائف واضطرب فؤاده شبيه هنا برفرفة جناحي الطائر حين يفزع ، وضـم اليدين إلى الصدر لجلب الاطمئنان والسكينة يشبه ضم الطائر لجناحيه وقت الأمان والهدوء ـ وهذا التعبير المصور سمة من سمات الأسلوب القرآني .

أمـا التعـبير عـن إخراج اليد ثلاث مرات ب(تخرج بيضاء) ومرة ب (نزع يده) فإن الـنزع ربمـا يوحـي بـبعض المعاناة النفسية التي اعترت موسى لحظة إخراج يده إشفاقا من

---

(١) البحر المحيط : ٧/ ٢٣٦

(٢) السابق : ٧/ ١١٧

النتيجة المتوقعة ـ والإنسـان ـ أحيانا ـ في أوقات الشدة والفزع لا يستطيع إخراج يده من جيبه ويشـعر بثقـلها فكأنهـا ملتصـقة داخـل الجيـب وربما يحتاج إلى من يساعده لنزعها وإخراجها . . . وهنا يكون (النزع) هو التعبير المناسب لهذه الحالة .

ب - الوكز باليد :

وتسـتخدم الـيد في قصـة موسـى عليه السـلام للوكـز في قولـه تعالى ﴿ . . . فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ . . . ﴿١٥﴾﴾ القصص ، في سياق الحديث عن استغاثة الإسرائيلي الـذي مـن شـيعته بـه عـلى القبطي الذي من عدوه . إن القضاء على القبطي بهذه الوكزة الواحـدة أمـر مسـتغرب فالوكـز هـو الدفع بأطراف الأصابع أو بجمع الكف . . وهذا لا يفضـي إلى المـوت غالـبا . ومـا دام الأمـر كذلـك ، فلا بد أنها وكزة تجمع فيها إلى الفتوة والقـوة شـحنة مـن الضـيق والغـيظ امتلأ بها صدر موسى عليه السلام من فرعون وقومه وكـل مـن يمت إليه بصلة . وقدا اعترف موسى عليه السلام بذلك وهو يطلب المغفرة من ربه على هذا الجرم الذي عده من عمل الشيطان عدوه المضل المبين .

وحـركة الـيد الثقـيلة الـتي تـتجمع فـيها كـل القوة تتسق مع السياق النفسي لحالات الإنسـان وقـت الغضـب ، فـإن القوى الكامنة في نفس الإنسان تتجمع في تلك اللحظات وتسبب ما لا يتصور في الحالات العادية .

ـ أمـا حـركة الـيد في قوله تعالى : ﴿ ... وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِ ... ﴿١٥٠﴾﴾ ﴿الأعـراف﴾ فهـي مـثال لـلحركة العنـيفة أيضا في السلوك الـيدوي لموسـى عـليه السـلام وقد وردت بصيغة أخرى على لسان أخيه هارون ﴿ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓ ... ﴿٩٤﴾﴾. طه .

وبمـراجعة الآيـتين في سياقهما يفهم أن موسى عليه السلام حينما رجع من ميقات ربه حاملا معه الألواح فيها من كل شيء موعظة وتفصيلا ـ وجد قومه وقد عبدوا العجل من دون الله ، فـتوجه إلى لوم أخيه على إهماله أمانة الخلافة في قومه ـ (وكـان موسى صلوات الله علـيه ـ رجـلا حديـدا مجبولا عـلى الحـدة والخشـونة والتصلب في كل شيء ، شديد الغضب لله ولدينه فلـم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله ـ بعدما رأوا من الآيـات العظـام ـ أن ألقـى الألـواح لما غلب عليه من الدهشة العظيمة وغضب لله وعنف بأخـيه وأقـبل علـيه إقـبال العـدو المكاشـف قابضا بيده على شعر رأسه وشعر لحيته يجره إليه) . [1]

---

(١) الكشاف : ٢/ ١٦١ ، ٣/ ٨٤

ولا شـك أن عـنف هـذه الحركة ما هو إلا صدى لعنف الانفعال والتوتر الذي اجتاح صدره فأنساه الألواح التي تحمل كلمات ربه بعد أن فقد السيطرة على نفسه . .

إن تلـك الحركة ـ إلقاء الألواح ـ وجذب الأخ من شعر رأسه ولحيته ـ يمكن أن يشترك فـيها من بني البشر كل من انتابه الغضب حين ينسى نفسه ويحطم ما في يده أو يهجم على من ظن أنه تسبب في إفساد أمره .

خاتمة

وهكـذا رأيـنا ـ مـن خـلال هذا البحث ـ أن حركة اليد وهيئاتها المختلفة قد أدت من المعـانى وأظهـرت مـن الدلالات أكثر مما تؤدية اللغة المنطوقة وأن تصوير الحركة أبلغ أثرا وأبعد مدى من تعبير اللسان .

لقـد تتبع البحـث كـل حـركات الـيد وهيـئاتها في القـرآن الكريم بالشرح والتحليل والتعليل مستهديا بروح النظم وببلاغة السياق .

تتبع وضع الأصابع في الآذان والعض على الأنامل والأيدي وتقليب الكفين والتصفيق بهمـا . ووضح ما تقوم به اليد وما توصف به من لمس وكتابة وأخذ وإشارة وبسط وقبض وغـل وكـف ، كما وصف البحث قطع اليد وتبها والضرب عليها والسقوط فيها وخص سـلوك الـيد في قصـة موسـى بمزيد من العناية وفي كل تلك المواقف كانت بلاغة التصوير الحـركي كاشـفة عـن مسـتور الـنوايا . ومخبوء الضـمائر بهدف التأثير في نفوس المتلقين والأخذ بأيديهم إلى طريق الصواب .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا :

١ـ أسباب النزول ـ الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ـ تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢ـ أسباب النزول . السيوطي . هامش على تفسير وبيان القرآن الكريم من إعداد : محمد حسن الحمصي ط ـ دار الرشيد ـ بيروت .

٣ـ أساس البلاغة ـ الزمخشري ـ ت : عبد الرحيم محمود ط ـ بشاور ـ باكستان .

٤ـ أسرار البلاغة . الجرجاني ، تحقيق محمود شاكر ط ـ المدني بجدة والقاهرة ١٩٩١م .

٥ـ الإشارات الجسمية ـ دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل د . كريم زكي حسام الدين ط١ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٩١م .

٦ـ أصوات وإشارات ـ كوندراتوف ـ ترجمة ـ إدوار يوحنا ـ ط١ وزارة الإعلام ـ العراق ، وله ترجمة أخرى لشوقي جلال ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٧ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل . القاضي البيضاوي ـ هامش على حاشية محيي الدين شيخ زاده ـ المكتبة الإسلامية ـ ديار بكر ـ تركيا .

٨ـ البحر المحيط . محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ـ ط ـ دار الفكر ـ بيروت .

١٠ـ بغية الإيضاح . الشيخ عبد المتعال الصعيدي ط ـ مكتبة الآداب القاهرة ١٩٩٧م .

١١ـ البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية ـ د . عبد الله هنداوي ط ـ الأمانة ـ مصر ١٩٩٥م .

١٢ـ البيان والتبيين . الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ـ تحقيق ، فوزي عطوي ط ـ الخانجي ـ مصر ١٩٦٩م .

١٣ـ التصوير الفني في القران . سيد قطب ـ ط : دار الشروق .

١٤ـ تفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور ط . الدار التونسية للنشر .

١٥ـ تفسير النهر الماد من البحر . أبو حيان الأندلسي . هامش علي البحر المحيط ط : دار الفكر ـ بيروت .

١٦ـ تلخيص البيان في مجازات القرآن ـ الشريف الرضي

١٧ـ الحيوان . الجاحظ . تحقيق فوزي عطوي ط : دار صعب ـ بيروت ١٩٨٢م .

١٨ـ دراسات في علم اللغة د . فاطمة محجوب ط : دار النهضة العربية .

١٩ـ الدر اللقيط من البحر المحيط الإمام تاج الدين الحنفي ـ هامش على البحر المحيط .

٢٠ـ دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمود شاكر ، مكتبة الخانجي ـ مصر .

٢١ـ الدر المصون في علم الكتاب المكنون ـ السمين الحلبي ـ ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٢ـ دور البلاغة في تأدية الأغراض الدينية ـ د . محمد إبراهيم شادي ط : دار السعادة ـ مصر ١٩٩١م

٢٣ـ ديوان الوأواء الدمشقي : أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني ـ تحقيق سامى الدهان مطبوعات المجمع العلمي العربي الدمشقي . ١٩٥٠م .

٢٤ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ العلامة الألوسي البغدادي ط ـ دار التراث ـ بيروت .

٢٥ـ زاد المسير في علم التفسير . أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٢٦ـ الزهرة . أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، ط . عمان ١٩٧٥م

٢٧ـ السيرة النبوية . ابن هشام . دار الفكر . القاهرة .

٢٨ـ شرح ديوان . عمر بن أبي ربيعة ـ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٥٢م

٢٩ ـ صحيح مسلم . الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ المكتبة الإسلامية استانبول ـ تركيا .

٣٠ـ الصحيح المسند من أسباب النزول ـ مقبل بن هادي الوادعي ط٢ ـ دار الأرقم ـ الكويت .

٣١ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده . ابن رشيق ـ تحقيق . محمد محيي الدين ط٣ ـ المكتبة التجارية ١٩٦٢م .

٣٢ـ في ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق ـ مصر ١٩٨٥م .

٣٣ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . جار الله محمود ابن عمر الزمخشري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٣٤ـ الكلمة ـ دراسة لغوية ومعجمية . د . حلمي خليل ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب فرع الإسكندرية ـ ١٩٨٠م .

٣٥ـ لسان العرب ابن منظور ـ ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر .

٣٦ـ اللسان والإنسان . مدخل إلى معرفة اللغة ـ د . حسن ظاظا . مطبعة المصري ـ الإسكندرية ١٩٧١م ـ توزيع دار المعارف .

٣٧ـ لغة الجسد . الن بيز ـ تعريب : سمير شيخاني ـ دار الآفاق ـ بيروت ١٩٩٧م .

٣٨ـ اللمع في أصول الفقه ـ أبو إسحاق الشيرازي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٥م .

٣٩ـ مباحث في علوم القرآن ـ مناع القطان ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت

٤٠ـ مشكاة المصابيح . الخطيب التبريزي . هامش على مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح . الملا علي القاري . المكتبة التجارية ـ مكة المكرمة ١٩٩٢م .

٤١ـ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . عبد الرحيم بن أحمد العباسي ، تحقيق محيي الدين المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ١٩٧٤م .

٤٢ـ مفاتيح الغيب . الإمام محمد بن عمر الحسن الرازي . دار الغد العربي ـ القاهرة .

٤٣ـ الانتصاف . الإمام أحمد بن المنير الإسكندري ـ حاشية على الكشاف .

٤٤ـ النقد الأدبي . أصوله ومناهجه . سيد قطب . دار الشروق .

محتويات الكتاب

لغة الجسد في القرآن الكريم

العين والوجه واليد نموذجا

دراسة بلاغية

في هذا الكتاب: يطوف بنا المؤلف في جولات متتابعة بين الآيات القرآنية التي اتخذت لغة الجسد وسيلة للتعبير عن مكنون النفس البشرية، ويعرض علينا الصورة الجسمية الحركية للمواقف المختلفة للإنسان في الدنيا والآخرة مبينا السر البلاغي وراء التعبير بلغة الإشارة الجسدية، وسيرى القارئ في هذا الكتاب نماذج من تلك اللغة الجسدية، فهذه يد مغلولة إلى عنقها شحا وبخلا وأخرى مبسوطة بالإنفاق والكرم.

وتلك عين قريرة آمنة، وأخرى خائنة زائغة شاخصة.

وهناك وجوه ناضرة مسفرة، ضاحكة مستبشرة، وأخرى باسرة كالحة، عليها غبرة ترهقها قترة.

وقد اعتمد الباحث على السياق والنظم القرآني لبيان الظلال والإيحاءات التي يهدف إليها القرآن الكريم حين يعبر بلغة الجسد عن تلك المواقف بغية التأثير الوجداني والإمتاع الفني.


ISBN 977-339-276-8

